وزارة التربية

تفسير القرآن الكريم

٢٧

(الجزء السابع والعشرون)

للصف الخامس بالتعليم العام

وما في مستواه

المرحلة الابتدائية

الطبعة الثالثة

Y kuwait.net
منتديات ياكويت

وزارة التربية

تفسير القرآن الكريم

(الجزء السابع والعشرون)

للصف الخامس بالتعليم العام
وما في مستواه

تأليف

محمد محمد عبد الحليم الشيخ (مشرفاً)
د. أحمد حسن فرحات محمد نصر مصطفى غره

الطبعة الثالثة

١٤٢٩ هـ

٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لوزارة التربية - قطاع البحوث التربوية والمناهج
إدارة تطوير المناهج

الطبعة الأولى ٨٦/ ١٩٨٧ م
الطبعة الثانية ٨٨/ ١٩٨٩ م
الطبعة الثالثة ٩٠/ ١٩٩١ م
٩٣/ ١٩٩٤ م
٩٥/ ١٩٩٦ م
٩٧/ ١٩٩٨ م
٩٨/ ١٩٩٩م
٢٠٠٠ / ٢٠٠١م
٢٠٠٣/ ٢٠٠٤م
٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ م
٢٠٠٥/ ٢٠٠٦م
٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م
٢٠٠٨ – ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
سورة الذاريات	٩
سورة الطور	٢٨
سورة النجم	٥١
سورة القمر	٧٩
سورة الرحمن	١٠٤
سورة الواقعة	١٣٣
سورة الحديد	١٦١

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي جعل في السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . ونصلي ونسلم على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وجعل له من لدنه سلطانا نصيرا .

أما بعد :

فهذا تفسير للجزء السابع والعشرين من كتاب الله الكريم ، راعينا فيه الإيجاز بلا إخلال ، والتفصيل عند الحاجة بلا إملال ، مع الحرص على سهولة العرض ، ووضوح العبارة ، والالتزام بمنهج السلف الصالح في التفسير بالمأثور ، فإن لم نجد ففي لغة العرب متسع للباحث الصبور ، فإن القرآن نزل بلغة العرب كما قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... »(١) .

فالله نسأل أن يتقبل منا عملنا هذا ، ويجعله في حسناتنا ، ويتجاوز برحمته عن سيئاتنا ، ونسأله سبحانه أن ينفع به كاتبه وقارئه ومن أعان عليه ..

والحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

المؤلفون

---

(١) سورة الشورى/ الآية :٧ .

سورة الذاريات

تمهيد :

عرفنا في الجزء السادس والعشرين أن سورة الذاريات من السور المكية التي تعالج قضية كبرى من القضايا التي كانت موضع إنكار لدى العرب المشركين ، وهي قضية الحياة بعد الموت ، وما يترتب عليها من حساب وجزاء ، وأن السورة بدأت بالقسم بالرياح الذارية التي تحمل السحاب الثقال الحامل للمطر ، وأنها تجري به جريًا سهلًا ، فتفرقه شرقًا وغربًا ، وشمالًا وجنوبًا ، فيكون المطر النازل منه سببًا للحياة في بعض البلاد ، وسببًا للهلاك والدمار بما يصاحبه من العواصف والسيول في بعض البلاد الأخرى . وفي ذلك كله دليل واضح على إمكانية الحياة بعد الموت ، كما نرى ذلك في الأرض الهامدة ينزل عليها المطر ، فتدب فيها الحياة ، وفيه كذلك دليل على الجزاء في الآخرة وتنوع هذا الجزاء . ومن هنا كان جواب القسم بالذاريات أن ما وعدنا الله به من الحياة الآخرة حق لا ريب فيه : « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ »[1] وأن الجزاء يوم القيامة على أعمالنا في الحياة الدنيا أمر لازم لا بد منه : « وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ »[2] .

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة التي أكدها الله سبحانه وتعالى ، وبينها بالقسم بالرياح الذارية ، فقد كان موقف العرب المشركين منها مختلفا تمام الاختلاف ، حيث كانوا ينكرون البعث بعد الموت ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، فراحوا يستعجلون العذاب في الحياة الدنيا استهزاءً بمن يؤمن به ، واستبعادًا لوقوعه .

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥ .

(٢) سورة الذاريات الآية : ٦ .

غير أن هذا العذاب الموعود سيأتي في وقته المحدد ، يوم يحرقون في نار جهنم ، ويقال لهم حينذاك : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ »[1].

ثم يؤكد الله تعالى ذلك كله بالقسم بذاته : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ »[2] إن ما أخبر به من البعث والجزاء أمر حق لا شبهة في وقوعه ، كما أنكم لا تشكون في أنكم تنطقون . وعملية النطق عند الإنسان لا يمكن أن يتطرق إليها شك ، وذلك لأنها في غاية الوضوح والظهور .

ثم يزيد حقيقة البعث والجزاء تأكيدًا ببعض آيات الأرض ، وما جرى فيها للأمم السابقة ، فيذكر لنا حديث ضيف (إبراهيم) من الملائكة المكرمين ، الذين دخلوا عليه بيته مسلمين مبشرين بغلام يولد له ، هو (إسحاق) عليه السلام ، ويصفونه بأنه عليم .

وتدل هذه البشارة التي جاء بها الملائكة المكرمون على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء .

أما دلالتها على البعث : فلأن الله تعالى القادر على جعل العجوز العقيم زوجة (إبراهيم) — عليه السلام — تلد ، وتأتي بغلام عليم على الرغم من عقمها وكبرها في السن وكبر زوجها ، فإنه لقادر أيضًا على إحياء الموتى ومجازاتهم ، كما أحيا غلامًا من زوج عجوز عقيم ، وأب شيخ كبير . وأما دلالتها على الجزاء فلأن مثل هذا الأمر العجيب الخارق جعله الله تعالى لإبراهيم — عليه السلام — جزاء

---

(١) سورة الذاريات الآية : ١٤ .

(٢) سورة الذاريات الآية : ٢٣ .

وفاقًا، لما قدم من طاعة مولاه ، ولما أظهر في ذلك من التفاني والجد والإخلاص . غير أن الملائكة لم يأتوا بالبشارة التي تدل على البعث والجزاء الحسن في الآخرة فقط ، وإنما جاءوا أيضًا بالعذاب المناسب للمجرمين في الحياة الدنيا من قوم (لوط) — عليه السلام — والذي يدل هو الآخر على الجزاء السيئ للمكذبين يوم القيامة . وهو مايؤكده جوابهم لإبراهيم عليه السلام — حين سألهم عن الأمر الكبير الخطير الذي جاءوا من أجله ، وهو ما تشير إليه الآيات الآتية والتي سنفسرها في هذا الجزء بعون الله وتوفيقه .

* * * *

« ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا
غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

فما خطبكم أيها المرسلون ؟ : ما شأنكم الذي أرسلكم الله به أيها الملائكة ؟

قوم مجرمين : قوم (لوط) الذين أجرموا بكفرهم بالله ، وتجاوزهم ما أحل الله لهم من النساء .

لنرسل عليهم حجارة من طين : لنرجمهم ، ونمطرهم بحجارة .

مسومة عند ربك للمسرفين : جعل الله لهذه الحجارة علامات خاصة ، تميزها عن غيرها من العقوبات ، وأعدها لمن تجاوز ما أحل الله له من النساء .

من المؤمنين	: الذين آمنوا بلوط ـــ عليه السلام ـــ واستجابوا لدعوته .
غير بيت من المسلمين	: غير أهل بيت ، وهم (لوط) ـــ عليه السلام ـــ وابنتاه .
وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم	: وتركنا في عقاب هذه القرية عظة وعبرة لمن يخاف عذاب الله المؤلم يوم القيامة .

قوم (لوط) يمطرهم الله بالحجارة :

بعد أن اطمأن (إبراهيم) ـــ عليه السلام ـــ إلى الملائكة المكرمين ، الذين بشروه بغلام يولد له أراد أن يتعرف المهمة الكبرى التي جاءوا من أجلها ، لأنه يعرف أن الملائكة لا يرسلهم الله عادة إلا لأمر عظيم ، أو شأن خطير . فوجه كلامه إلى الملائكة سائلًا إياهم عن الأمر الذي أرسلوا من أجله .

فأخبره الملائكة أن الله أرسلهم لمعاقبة قوم مجرمين ، هم قوم (لوط) عليه السلام ؛ لأنهم أجرموا بارتكاب المعاصي والآثام ، وتركوا ما أحل الله لهم وأسرفوا في ارتكاب ما حرم عليهم ، فاستحقوا غضب الله وعقابه . فأرسل عليهم ريحاً ذارية اشتدت فانقلبت حاصبًا ، تحمل الحجارة والحصى ، وتمطرها عليهم . كما قال تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ »[1] . بل لقد بلغ من شدة هذه الرياح أن قلبت مساكنهم ، كما قال تعالى « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

---

(١) سورة القمر / آية ٣٤ .

مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ »[1] . فأصبحت بيوتهم وعروشهم المهدمة مغطاة بالحصى والرمال ، كما قال تعالى : « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ »[2] .

نجاة (لوط) وابنتيه من العذاب :

ولما كانت العدالة الإلهية تقتضي أن يكون العقاب خاصاً بالمجرمين والعصاة المنحرفين ، فقد طلب إلى الملائكة أن يُخرجوا من القرية من كان مؤمنًا مطيعًا لله سبحانه وتعالى ، حتى لا يصاب بأذى من عقوبة المجرمين . فقام الملائكة بواجبهم خير قيام ، فأخرجوا المؤمنين من تلك القرية الظالمة التي استحقت عقاب الله تعالى ، فوجدوا أن هؤلاء المؤمنين لم يكونوا إلا أهل بيت واحد ، هو بيت (لوط) عليه السلام ، فخرج معهم هو وابنتاه ، ونجّاهم الله من عقاب القوم المسرفين .

وأنزل بعد ذلك بأسه وعقوبته على القوم المجرمين ، فأهلكهم ودمّر قريتهم ، وجعل في ذلك كله عبرةً وعظةً لمن يخاف عذاب الله ، ويظن أنه سيقف يوم القيامة بين يديه .

ولا شك أن هذا العذاب الذي أنزله الله بالمجرمين في الحياة الدنيا دليل على أن الله تعالى لن يترك المجرمين في الآخرة بغير عقاب ، لأن العدالة الإلهية تقتضي أن يأخذ كل إنسان حقه ، وأن ينال نصيبه حسب عمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

---

(١) سورة هود / آية ٨٢ .

(٢) سورة النجم / الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

« وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ
مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾
مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون : كذلك في قصة (موسى) مع فرعون آية دالة على انتقام الله تعالى من المجرمين ، ونصرته للمؤمنين .

بسلطان مبين : بآيات واضحة دالة على صدق رسالته ، وما سيكون لها من الغلبة والظفر : كالعصا واليد .

فتولى بركنه : أعرض عن الإيمان إنكارًا واستكبارًا مغترًّا بقوته وسلطانه .

وقال ساحر أو مجنون : أي قال فرعون لموسى : لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرًا أو مجنونًا .

فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم : عاقبناه وجنوده فأغرقناهم في البحر .

وهو مُليم : جاء بما يلام عليه من الكفر وعدم الإيمان ، فظهر خسرانه ، وصار بحيث يلومه كل من علم بفعله .

وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم : كذلك في قصة عاد قوم (هود) ــ عليه السلام ــ آية دالة على انتقام الله تعالى من المجرمين ، حيث أرسل عليهم ريحًا باردة مهلكة ، لا تحمل مطرًا ، ولا تلقح شجرًا .

ما تَذَرُ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم : ما تترك هذه الريح من شيء تصيبه إلا جعلته كفتات العظم البالي ، أو حُطام النبات اليابس.

وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين	: وكذلك في قصة ثمود قوم (صالح) ـــ عليه السلام ـــ عبرة وعظة ، حيث أمهلهم الله ثلاثة أيام قبل العذاب .
فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظـــرون	: فعصوا واستكبروا بعقرهم للناقة ، فأهلكهم الله بصاعقة العذاب جهارًا نهارًا .
وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قومًا فاسقين	: أي كما أخذنا هذه الأمم بالعذاب ، كذلك أخذنا قوم (نوح) ـــ عليه السلام ـــ من قبلهم ، لأنهم كانوا خارجين عن طاعة الله ، مكذبين لنبيهم .

عرفنا فيما تقدم أن من آيات الله في الأرض الدالة على البعث والجزاء قصة الملائكة المكرمين مع (إبراهيم) ، عليه السلام ، وقصتهم في إهلاك قوم (لوط) عليه السلام . وفي هذا النص نتابع آيات الله في الأرض ، وما نزل من العقوبة في المكذبين للرسل من الأمم السابقة ، والتي تدل كلها على أن القادر على إنزال العذاب بالمكذبين في الدنيا قادر أيضًا على بعث الناس ، ومجازاتهم يوم القيامة .

قصة موسى مع فرعون :

من المعروف أن فرعون ــ حاكم مصر ــ في زمن موسى عليه السلام ــ كان حاكمًا ظالمًا ، معتدًّا بقوته وسلطانه ، وجنده وأتباعه ، متعاليًا على الناس ، مستضعفًا لبني إسرائيل الذين كانوا يعيشون في كنفه ، وتحت سلطانه . فلما أوحى الله إلى (موسى) عليه السلام ، وجعله نبيًّا ، طلب إليه أن يذهب إلى فرعون ، وأن يدعوَه للإسلام ، وأيده بالمعجزات الدالة على صدق نبوته ، وصحة رسالته .

فلما ذهب موسى ــ عليه السلام ــ إلى فرعون ، وأخبره أنه مرسل إليه من رب العالمين ، وأقام له الأدلة على ذلك ، بما أعطاه الله من الآيات ، كالعصا التي تنقلب إلى حية ، واليد البيضاء من غير سوء ــ لم يستجب فرعون لدعوة الإيمان ، وأعرض عنها منكرًا لها ، ومستكبرًا أن يؤمن بها ، واغتر بقوته وجبروته ، وجنده وسلطانه ، واتهم موسى ــ عليه السلام ــ بأنه ساحر أو مجنون ، وأن بإمكانه أن يأتي بمثل ما جاء به (موسى) من السحر ، فجمع السحرة مع موسى -عليه السلام- فألقى السحرة ما معهم من الحبال ، فبدت للناس كأنها تتحرك وتمشي من تأثيرها السحري في أعين الناس . وهنا ألقى (موسى) عصاه فإذا هي تبتلع تلك الحبال ، ولا تُبْقي لها أثرًا . فعرف السحرة حينئذ أن ما جاء به موسى ــ عليه السلام ــ ليس سحرًا ، وآمنوا بموسى - عليه السلام .

إهلاك (فرعون) وجنوده غرقًا :

غضب (فرعون) لإيمان السحرة ، وأراد أن يقضيَ على موسى ــ عليه السلام ــ وبني إسرائيل ، فأوحى الله إلى موسى بقوله : « فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ »[1] . وخرج فرعون وراءهم يريد اللحاق بهم ، وما أن وصل موسى ــ عليه السلام ــ إلى البحر ، حتى ضربه بعصاه ، فانفلق البحر بقدرة الله تعالى ، ومرّ فيه موسى ــ عليه السلام ــ وبنو إسرائيل .

ولما وصل فرعون إلى البحر ، ووجد أمامه طريقًا سلكه (موسى) وبنو إسرائيل ، مشى فيه ، فلما أصبح هو وجنوده في البحر انطبق عليهم ، فغرق هو وجنوده ، وأصبحوا منبوذين فيه مبعدين ، جزاء كفرهم وجحودهم وتكذيبهم بآيات الله .

إن الله الذي أنجى (موسى) ــ عليه السلام ــ ومن معه من بني اسرائيل من بطش فرعون ، بسبب إيمانهم وصبرهم هو الذي أهلك فرعون وجنوده جزاء ما كسبت أيديهم وهو- سبحانه - القادر على أن يبعث الناس يوم القيامة وأن يجازيهم على ما قدموا من عمل ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

إن ما جرى من تعذيب المجرمين ، وإنجاء المؤمنين من قوم (لوط) عليه السلام ،وما جرى-من إغراق المكذبين لموسى عليه السلام ، وإنجاء المؤمنين ــ قد جرى مثله في الأمم السابقة ؛ لأن سنة الله في ذلك واحدة ، وهي أن يأخذ المكذبين بما يستحقون

---

(١) سورة الدخان / الآية ٢٣ .

من العذاب ، وأن ينجي المؤمنين المصدقين للرسل ، وينصرهم على أعدائهم .

ونرى هذا واضحًا في عاد قوم (هود) عليه السلام ، وثمود قوم (صالح) عليه السلام ، وقوم (نوح) عليه السلام .

إهلاك عاد قوم (هود) بالريح العقيم :

فأما عاد قوم هود ــ عليه السلام ــ فقد كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية (الأحقاف ــ حضرموت) .

وكانوا قومًا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ، فأرسل الله ــ تعالى ــ لهم نبيهم (هودًا) عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده ، ولكنهم أبوا أن يستجيبوا لدعوته ، وكذبوه ، واستهزؤوا بما أوعدهم من العذاب ، واستعجلوه ، فأرسل الله ــ تعالى ــ عليهم ريحًا عقيمًا ، تحمل الموت والدمار ، ولا تحمل خيرًا ولا نفعًا ، فأهلكت الحرث والنسل ، وجعلت كل شيء تمر عليه حطامًا باليًا ، وفتاتًا يابسًا ، ولقد بين الله تفاصيل قصتهم في أماكن أخرى من القرآن الكريم .

إهلاك ثمود قوم (صالح) بالصاعقة :

وأما ثمود قوم (صالح) ــ عليه السلام ــ فقد كانوا يسكنون شمال الجزيرة العربية (مدائن صالح) ، وكانوا أيضًا مشركين بالله تعالى ، فأرسل الله إليهم نبيهم (صالحًا) عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما هم عليه من كفر وشرك . ولقد طلبوا من (صالح) ــ عليه

السلام ــ معجزة تدل على صدق نبوته ، بأن يخرج لهم ناقة من الصخرة ، فاستجاب الله لطلبهم ، وخلق لهم الناقة التي تدل على صدق نبوة (صالح) ــ عليه السلام ـ وطلب إليهم ألا يمسوها بسوء .

ولكنهم على الرغم من ذلك لم يؤمنوا ، وكذبوا نبيهم ، وعقروا الناقة ، فقال لهم (صالح) عليه السلام : انتظروا ثلاثة أيام ، وسوف يأتيكم العذاب . فأخذتهم الصاعقة الهائلة ، والصيحة الصاخَّة بالخوف والرجفة ، فلصقوا بالأرض ، ولم يستطيعوا القيام ، كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى : « فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ »(١) فما استطاعوا من العذاب هربًا ، وما استطاعوا له دفعًا « . . . وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ »(٢) .

إهلاك قوم (نوح) بالطوفان :

وأما قوم (نوح) ــ عليه السلام ــ فقد خرجوا أيضًا عن طاعة الله تعالى ، وعبدوا غيره ، وكذبوا نبيهم (نوحًا) ــ عليه السلام ــ ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا فرارا ، على الرغم من أنه دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فلم يؤمن معه منهم إلا قليل . فدعا عليهم بعد ذلك فأمره الله تعالى أن يصنع السفينة ، وأن يحمل فيها كل من آمن معه . وأرسل الله عليهم السماء مدرارًا ، وفجر الأرض عيونا ، فالتقى ماء المطر وماء الينابيع ، فكان الطوفان الذي أغرق المكذبين ، ونجا (نوح) ــ عليه السلام ــ ومن معه من أصحاب السفينة .

وفي كل ذلك آية دالة على أن الله تعالى لا بد أن يُجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

---

(١) سورة الأعراف / الآية : ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة الذاريات / الآية : ٤٥ .

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ
الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

بأيد : بقوة . كما نقول : أيّده : قوّاه .
لموسعون : قدرتنا واسعة لا حدود لها .
والأرض فرشناها فنعم الماهدون : جعلناها ممهدة كالفراش .
زوجين : صنفين متقابلين ، يكمل أحدهما الآخر .
ففروا إلى الله : التجئوا إليه بالعبادة دون غيره .
إني لكم منه نذير مبين : مرسل من قِبَله ، لأبين لكم عاقبة العاصين .

من دلائل قدرة الله تعالى :

بعد أن بين الله لنا في الآيات السابقة قدرته تعالى في معاقبة المجرمين ، وإنجاء المؤمنين في الحياة الدنيا ، وأن ذلك يدل على قدرته

على بعث الناس يوم القيامة ، ومجازاتهم حسب أعمالهم ـــ أخذ يُبيِّن لنا في هذه الآيات نوعًا آخر من قدرته ، المتمثلة بخلق السماء والأرض ، حيث بنى السماء بقوة على الرغم من سعتها وارتفاعها ، وجعل الأرض ممهدة للإنسان صالحة لحياته ، يشعر فيها بالراحة والطمأنينة ، كأنه ينام على فراش ممهد . ولا شك أن خلق السماء بهذه الكيفية يدل على سعة قدرته تعالى ، وأنها لا حدود لها . كما أن خلقه للأرض صالحة لحياة الإنسان يدل على قدرة فائقة ، ومزيد عناية بهذا الإنسان ، بل جعل السماء والأرض تتعاونان في تهيئة الحياة المناسبة للإنسان ، فتكمّل إحداهما الأخرى ، فهما في تعاونهما وتكاملهما كالزوجين يكمل أحدهما الآخر . ولا غرابة في ذلك فإن الزوجية طابع المخلوقات كلها ، فكما نراها في الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ، كذلك نراها في المخلوقات الأخرى كالليل مع النهار ، والشمس مع القمر ، والبر مع البحر ، والضياء مع الظلام . بل إننا نجدها في الذرة أصغر المخلوقات ، وأصل المادة كهاربٌ سالبة وموجبة يقوم عليها بناء الكون كله . وإن هذه الزوجية المتمثلة في كل شيء من مخلوقات الله تعالى لتذكرنا أيضا بأنه لا بد لهذه الحياة الدنيا من زوج هو الحياة الآخرة ، ولا بد في الحياة الآخرة من ثواب وعقاب ، وسعادة وشقاء ، وجنة ونار . وإذا كانت الزوجية طابع المخلوقات جميعًا ، فإنها تدل ولا شك على افتقار كل زوج إلى زوجه ، وأنه لا غنى لبعضها عن بعض ، كما تدل أيضًا على افتقار الأزواج كلها إلى من لا زوج له ، إلى خالقها وبارئها الذي منحها خصائصها ، وجعل لها نظامها ، فإنه أصل الوجود ، ومصدر القوة والحياة ، فهو وحده الجدير بأن

تتعلق بحبه القلوب ، وأن تتطلع إليه النفوس . ولهذا يأمرنا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفرار إليه ، والالتجاء إلى حماه ، والترغيب في طاعته. كما ينذرنا عواقب الابتعاد عنه ، والركون إلى غيره ، والسير في طرق الانحراف والمعاصي ؛ لأنه تعالى قادر على أن يعذبنا كما عذّب الأمم السابقة . ولكن شاءت رحمته تعالى بنا أن يرسل إلينا نبينا محمدًا ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ؛ لينذرنا عواقب الغفلة والمعصية قبل أن نتورط في ذلك كله ، وأن نستعين بفضل طاعته على ترك معصيته .

* * * *

« كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ
تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن
يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

أتواصوا به : أوصى السابقون المتأخرين بتكذيب الرسل؟!

بل هم قوم طاغون : لم يتواصوا بذلك ، ولكن جمعهم الطغيان والتجاوز لحدود الله .

فتول عنهم فما أنت بملوم : أعرض عنهم ، فلا لوم عليك بعد أن بلّغتهم.

وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين : فمع الإعراض عن المكذبين لا تترك التذكير العام ، فإنه نافع للمؤمنين .

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون : إلا لآمرهم بعبادتي التي تتحقق لهم بها السعادة في الدنيا والآخرة .

ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون : لا أطلب منهم ما يطلبه السادة من عبيدهم .

إن الله هو الرزاق : لخلقه المتكفل بأقواتهم .

ذو القوة المتين : صاحب القوة الشديد في عقابه .

ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم : نصيبا من عذاب الله مثل نصيب من سبقهم .

فويلٌ للذين كفروا : عذاب شديد سينزل بهم .

من يومهم الذي يوعدون : من يوم القيامة الذي أوعدهم فيه العذاب .

تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم :

في هذه الآيات يبين الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ لرسوله (محمد) ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن ما تعرض له من قومه المشركين من إيذاء واتهام بالسحر والجنون ، قد تعرض لمثله الأنبياء السابقون من أقوامهم المكذبين ، وأن أقوال المكذبين في كل عصر تكاد تكون هي هي ، حتى ليُظن بأن السابقين أوصوا اللاحقين بأن يقفوا المواقف نفسها ويردّدوا الأقوال نفسها والحقيقة أنه ليس هناك تواص فيما بينهم ، إنما هذا التشابه في أقوال المكذبين ناتج عن التشابه في الطغيان ، وتجاوز الحدود ، والخروج على طاعة الله .

وفي هذا تسلية للرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ عما كان يلاقيه من أذى المشركين ، حين يعلم أنه في هذا الأمر ليس بدعًا ، وأن شأنه كشأن من سبق من الرسل . ومن ثم يطلب الله إليه أن يعرض عنهم ، وألا يهتم كثيرًا بمواقفهم واتهاماتهم ، وأن عليه أن يستمر في دعوته للناس ، وتذكيرهم بما أنزل عليه ، فإن التذكير إن لم يفد المكذبين فسيفيد المؤمنين . ومن ثم فلا يجوز أن تتوقف دعوة الرسول لمثل هذا الموقف الشاذ من المكذبين المعاندين ، ولا يكون ذلك مانعًا له من تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة .

الغاية الإلهية من خلق الإنس والجن :

إن الله تعالى أراد من رسله أن يبيّنوا للناس الغاية من وجودهم ، وسبيل تحقيق سعادتهم ، وأن ذلك لا يكون إلا بعبادة الله ، وفعل ما أمر ، واجتناب ما نهى ؛ لأنه لم يأمرهم إلا بما فيه نفعهم وكمالهم ، ولم ينههم إلا عما فيه ضررهم وخسرانهم . ولم يرد الله من خلقه مثل ما يريد السادة من عبيدهم ، حيث يستخدمونهم لتحصيل الأموال ، وجلب الأرزاق ؛ فإن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ غني عن الاحتياج إلى خلقه ، فلا يريد منهم رزقًا ولا طعامًا ؛ لأنه هو الرزاق لهم ، المتكفل بأقواتهم ، وإن ما يأمرهم به من عبادته يعود نفعه إليهم ، كما أن عصيان أوامره يعود عليهم بالضرر ؛ لأنه تعالى صاحب القوة ، شديد العقاب ، ولقد أنزل بأسه بالمكذبين في الأمم السابقة ، وكذلك يفعل بالمكذبين من هذه الأمة ، فيأخذون نصيبهم من العذاب مثل ما أخذوا ، ثم بعد ذلك يأتيهم عذاب الآخرة في جهنم ، والذي وعدهم الله به في أول السورة : « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝ »[1] .

(١) سورة الذاريات الآية : ٥ ، ٦ .

سورة « الطور »

تمهيد :

سورة « الطور »سورة مكية ، وهي تأتي في ترتيب التلاوة بعد سورة « الذاريات » ، وقد عرفنا فيما سبق أن سورة « الذاريات » تضمنت دلائل قدرة الله تعالى على إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت ، واستحقاقه للجزاء المناسب لعمله ، وأن هذه الدلائل قائمة في الآفاق والأنفس ، وأن واقع التاريخ البشري ، وما جرى فيه من أحداث ، أهلك الله بها المجرمين ، وأنجى بها المؤمنين ـــ خير شاهد على ذلك ، وأن ذلك كله يؤكد الحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن يتطرق إليها شك ، أو يداخلها ريب ، من أن أمر الآخرة لا بد آت ، وأن الجزاء فيه على ما قدم الإنسان من عمل لا بد واقع .

أما سورة « الطور » فقد جاءت تؤكد ما أخبرت به سورة « الذاريات » من وقوع الجزاء يوم القيامة ، وذلك بما تعرضه من صور العذاب للمشركين ، وصور النعيم للمؤمنين ، وبما تواجه به هؤلاء المشركين من مصيرهم المحتوم ، حيث يساقون بقوة وعنف إلى نار جهنم التي كانوا يدّعون أنها سحر وخيال ، وكانوا يستعجلون عذابها سخرية واستهزاء ، وكانوا يأخذون ما أخبرهم به القرآن من الوعد والوعيد مأخذ اللهو واللعب . كما أنها تعرض في المقابل أنواعًا من النعيم المقيم في جنة الخلد التي أعدها الله للمتقين من عباده ، فتبين ما هم فيه من سرور وحبور ، وما أنعم الله به عليهم من أطايب الطعام ، ولذائذ الشراب ، وما هيأ لهم من المقاعد الوثيرة ،

والمتكآت المتناسقة ، وما خصهم به من الزوجات الجميلات ، حسان الوجوه ، نُجْل العيون ، وما أكمل به سرورهم وفرحتهم بأن جعل أبناءهم الصالحين معهم ، يشاركونهم في هذا النعيم .

ثم تطلب السورة إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يذكر هؤلاء القوم بما أنعم الله به عليه من القرآن ، غير ملتفت إلى أقوالهم فيه ، واتهامهم له . كما تحمل عليهم وعلى موقفهم من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وموقفهم من القرآن في أسلوب قوي ، يكشف خبايا نفوسهم ، ويبين كثيرًا من مغالطاتهم وأباطيلهم ، فتفند أقوالهم ، وترد حججهم ، وتهددهم وتتوعدهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري المتضمن التوبيخ والتقريع ، لعلهم أن يفتحوا عيونهم على الحقائق ، ويصيخوا بأسماعهم إلى كلمة الهدى ، قبل أن يأتيهم العذاب الأدنى في هذه الحياة الدنيا ، والذي يكون مقدمة ودليلًا لما بعده من العذاب الأكبر يوم القيامة . وتؤكد السورة على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يمضي في طريقه ، منتظرًا حكم الله بينه وبين هؤلاء القوم ، وأنه في عناية الله ورعايته ، فليوثق علاقته مع الله ، وليتقرب إليه بالعبادة والتسبيح آناء الليل وإدبار النجوم ، فإن العاقبة له ولأتباعه المؤمنين الصادقين .

* * * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾
وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ
ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن
دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾
هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ
أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

والطور : الجبل الذي رفعه الله فوق بني إسرائيل .

وكتاب مسطور : هو التوراة التي أنزلها الله على موسى — عليه السلام — في جبل الطور .

في رَقٍّ منشور : في صحائف مفتوحة غير مطوية .

والبيت المعمور : بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون أبدًا . ويقال له الضراح .

والسقف المرفوع : السماء التي جُعلت للأرض كالسقف .

والبحر المسجور : المتّقد نارًا ، وهو بحر في باطن الأرض ، تخرج منه البراكين .

تمور السماء مورًا : تدور بما فيها بسرعة واضطراب .

وتسير الجبال سيرًا : كما تسير السحب بعد أن صارت كالصوف المنفوش .

فويل يومئذ للمكذبين : عذاب واقع بهم في ذلك اليوم .

يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعًّا : يُدفعون ويساقون إليها بشدة وإزعاج .

هذه النار التي كنتم بها تكذبون : تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخًا .

أفَسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون : أفسحر وخيال هذا العذاب ؟ أم أنتم لا ترون !!؟

اصلوها : ذوقوا حرّها .

فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم : صبركم وعدم صبركم سواء ، لن ينجياكم من عذابها .

استهلال السورة بالقسم :

تبدأ السورة بالقسم ، لتؤكد وقوع العذاب يوم القيامة . ويختار الله هذا القسم خمسة أشياء يقسم بها ؛ لما فيها من الدلالة على وقوع العذاب . وهذه الأشياء الخمسة هي :

١ ــ **الطور** : وهو الجبل الذي ذكره الله في القرآن في عدة آيات ، وقد رفعه الله فوق بني إسرائيل حينما أبَوْا أن يأخذوا ما آتاهم في التوراة ، وهددهم بإيقاعه عليهم إذا لم يأخذوا ما في التوراة ، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى : « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ »[١] ــ كما أشار إليه في سورة أخرى : « وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ »[٢]

كذلك أشار في آية أخرى إلى معاقبة بني إسرائيل الذين طلبوا أن يروا الله جهرة ــ على هذا الجبل ــ بقوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ »[٣] .

وأشار إليه حينما طلب موسى ــ عليه السلام ــ رؤية ربه بقوله : « قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا »[٤] .

---

(١) سورة البقرة / آية ٦٣ .
(٢) سورة الأعراف / آية ١٧١ .
(٣) سورة البقرة / الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .
(٤) سورة الأعراف / آية ١٤٣ .

ولا شك أن في رفع هذا الجبل فوق بني إسرائيل ، وتهديدهم بإيقاعه عليهم ، ومعاقبة من طلبوا رؤية الله بإهلاكهم على هذا الجبل ، وبدك هذا الجبل حينما تجلى له الله ، لا شك أن في ذلك كله آية دالة على وقوع العذاب يوم القيامة .

٢ ــ وكتاب مسطور في رق منشور :

يرجح كثير من العلماء تفسير الكتاب المسطور بالتوراة المنزلة على (موسى) عليه السلام ، وذلك مناسب لما سبق من ذكر « الطور » ، لأن نزول التوراة كان في الطور ، ولأن رفع الجبل فوق بني إسرائيل إنما كان ليأخذوا ما في التوراة بقوة ، كما سبق بيانه ، ووصف الكتاب بأنه مسطور ، لأنه متفق الكتابة بسطور مصفوفة من حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة ، كما وصفه بأنه في رق منشور أي : في صحف مفتوحة مهيأة للقراءة والاتعاظ بما فيها .

٣ ــ والبيت المعمور :

وهو بيت في السماء يقال له الضراح تغشاه الملائكة كل يوم وتعمره بالعبادة ، لما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء : (رقم ٣٨) رواه مسلم عن أنس «ثم رفع لي البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا . قال : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم» يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم . وهو بحيال الكعبة بحيث لو وقع لوقع فوقها .

٤ ــ **والسقف المرفوع :** المراد به هنا السماء ، وذلك كما جاء في قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا »[١] وهي مرفوعة بلا عمد نراها ، والله هو الذي يمنع سقوطها علينا ، كما قال : « وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ »[٢] .

ولو شاء أن يعذبنا بهذا السقف المرفوع بأن يُسقطه علينا فإنه قادر على ذلك ، كما قال : « إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ »[٣] .. ولكن الله لرحمته بالناس لم يعجل لهم العقوبة ، ولم يسقط عليهم قطعًا من السماء على الرغم من طلب الكافرين لذلك حينما قالوا : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ »[٤] .

ففي إمكان التعذيب بإسقاط السماء على الأرض آية على العذاب في الآخرة ولا شك .

٥ ــ **والبحر المسجور :** قيل فيه : هو المتقد نارًا ، الممتلىء ، والمحبوس ، وقيل : هو بحر في السماء ، وقيل : هو بحار الأرض التي يحبسها الله من أن تفيض على اليابسة فتغرقها . والذي نراه ــ والله أعلم ــ أن مجموع هذه الصفات التي ذكروها في البحر المسجور إنما تنطبق على البحر الموجود في باطن الأرض ، وهو بحر متقد من النار ممتلئ محبوس في باطنها ، يخرج في بعض الأحيان على شكل براكين ، فيحرق ويدمر كل ما أتى عليه ، فيكون بذلك مثالًا من عذاب الدنيا على عذاب الآخرة .

---

(١) سورة الأنبياء / آية ٣٢ .
(٢) سورة الحج / آية ٦٥ .
(٣) سورة سبأ / آية ٩ .
(٤) سورة الشعراء / آية ١٨٧ .

ـــ وهذه الأشياء الخمسة التي أقسم الله بها هي مما جرى عندها تعذيب للناس في الحياة الدنيا ، أو مما يمكن أن تكون منها عقوبة كما لاحظنا ، ولا شك أن مثل هذا العذاب الأدنى في الحياة الدنيا إنما يكون دليلًا على وقوع العذاب الأكبر في الآخرة ، كما هو جواب القسم «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝» (١) فلا يمكن الحيلولة دون وقوعه ، « مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ » (٢) وإذا وقع فلا يستطيع أحد دفعه .

متى يقع هذا العذاب ؟

عرفنا مما تقدم أن المشركين لا يؤمنون باليوم الآخر ، وأنهم يكذبون بما أخبر به القرآن الكريم من العذاب يوم القيامة ، وأن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ بين لنا بالقسم بالأشياء الخمسة إمكانية هذا العذاب ، وأن هناك ما يدل عليه مما عرفه الناس في الحياة الدنيا من العقوبات الإلهية ، وأن القادر على هذه العقوبات الدنيوية قادر على إنزال العذاب بالمكذبين يوم القيامة ، وأن هذا العذاب أمر مقرر في علم الله ، وأنه لا بد واقع في وقته المحدد ، وأن تأخيره إلى يوم القيامة إنما هو لحكمة كبرى ، وليكون هناك فرصة يتوب فيها من يتوب ، ويثوب فيها إلى الله من يثوب ، وأن عدم معاجلة المكذبين بهذه العقوبة إنما كان رحمةً إلهية بهم ،على الرغم من أنهم كانوا يستعجلونها مستهزئين ساخرين ، مدَّعين أنها سحر وخيال ووهم لا حقيقة .

غير أن الله ـــ سبحانه ـــ يؤكد لهؤلاء المشركين المكذبين أن هذا العذاب نازل بهم إذا جاء ذلك اليوم ، حيث تنتهي الحياة على هذه الأرض بفعل الدمار الشامل الذي يصيب الكون كله ، فيفقد

---

(١) ، (٢) سورة الطور/ الآيتان: ٧ ، ٨ .

كل شيء تماسكه وتوازنه ، ويختل نظام الكائنات ، وينفرط عقدها ، فتتساقط الأجرام ، وتتهاوى النجوم . فالسماء المبنية بأيد وقوة تتحرك وتضطرب ، ويموج بعضها في بعض ، والجبال الصلبة الراسية تفقد صلابتها وتماسكها ، فتغدو ذرات خفيفة كالهباء المنبث ، تسير من مكان إلى مكان ، كما يسير السحاب بفعل الرياح . في ذلك اليوم الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، يكون العذاب الذي وعد به الله المكذبين الذين أعرضوا عن الإيمان ، وكذبوا الرسل ، وقضوا أعمارهم بعيدين عن الحق ، منغمسين في الباطل ، متخذين ما جاءهم من عند الله من الوعد والوعيد هزوًا ولعبًا ، وما جاءهم من الحق سخرية ولهوًا . إنهم بأفعالهم هذه جديرون أن يساقوا إلى العذاب سوقًا ، ومستحقون أن يُدفعوا بقوة وعنف إلى نار جهنّم دفعًا ، لقد كانوا يكذبون بالعذاب والجزاء ، فهاهم أولاء الآن على أبواب جهنم التي كانوا يدعون أنها وهم وخيال . إن عليهم أن يواجهوا الحقيقة التي لا يسعهم إنكارها ، إنهم يوبخون من قبل الزبانية ويهانون ، ويدفعون في ظهورهم ويعنّفون ، فليس أمامهم إلا العذاب ، إذ ليس الأمر سحرًا كما كانوا يظنون ، ولكنه الوعد الحق والخبر الصدق ، فليدخلوا نار جهنم خالدين فيها ، إنهم يرون عذابها عيانًا ، فليذوقوه أشكالًا وألوانًا ، وليصبروا على العذاب أوْ لايصبروا ، فليس هناك أمل بالخروج ، ولن ينجيهم من هذا الموقف أحد . فألَمُ العذاب هو هو في حال الصبر وفي حال الجزع ، وبقاؤهم في جهنم أمر مقرر لا فكاك منه ولا إفلات ؛ لأنه جزاء وفاق لأعمالهم التي عملوها ، وجرائمهم التي ارتكبوها ، فلا تغيير فيه ولا تبديل ، ولا رفع له ولا تحويل .

« إِنَّ
ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ
رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ
عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾
وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

فاكهين بما آتاهم ربهم : معجبين متلذذين بما أعطاهم ربهم .

وزوجناهم : قَرَنَّاهم .

بحور عين : نساء حسان الأعين (والحور) جمع حَوْراء : الشديدة بياض العين في شدة سواد الحدقة . (والعِين) : جمع عَيْناء : واسعة العينين .

وما ألَتْناهم : وما نقصناهم .

من عملهم من شيء : من أجور أعمالهم شيئًا .

كل امرئ بما كسب رهين : مُقام في جزاء ما قدم من خير أو شر .

يتنازعون فيها كأسًا : يتجاذبونها في لعب وسرور .

لا لغو فيها ولا تأثيم : لا يهذي شاربوها ، ولا يعملون ما يؤثمهم .

كأنهم لؤلؤ : في بياضهم وشدة صفائهم .

مكنون : مصون في الصدف ، لم تمسه الأيدي .

مشفقين : خائفين من عذاب الله .

السَّموم : الريح الحارة النافذة في المسام ، المؤثرة تأثير السُّم .

البَرُّ الرحيم : الواسع العطاء ، الرفيق بعباده .

شتان بين المصيرين :

بعد أن عرفنا مصير المكذبين يوم القيامة ، وما نزل بهم من أصناف العذاب ، يبين الله لنا في هذه الآيات مصير المؤمنين ، وما أعدّ لهم من ألوان النعيم ، وما أغدق عليهم من العطايا الكثيرة ،

والنعم الموفورة ، وما أحاطهم به من الرعاية والتكريم جزاءً وفاقًا لما قدموه من عمل في حياتهم الدنيا . ولا شك في أن الجمع بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين في سياق واحد أسلوب من أساليب القرآن الكريم ، يساعد القارئ على المُوازنة بين المصيرين ، فيحمل القارئ على الرهبة والخوف من أن يكون في جملة الكافرين المكذبين ، ويرغبه في أن يكون في جملة المؤمنين الصادقين . كما أن هذه المُوازنة تزيد في عذاب الكافرين من جهة ، وتضاعف نعيم المؤمنين من جهة أخرى .

الجنة دار المتقين :

تبين هذه الآيات أن المؤمنين الصادقين الذين كانوا في حياتهم الدنيا ملتزمين فعل ما أمرهم الله به من الطاعة ، مجانبين لما نهاهم عنه من المعصية ، مُتَوَقِّين الوقوع في الحرام ، حذرين من الاقتراب منه ، صابرين على مشقة الطاعة وتكاليفها ، مكابدين صدَّ أنفسهم عن لذة المعصية وإغرائها . إن هؤلاء جديرون أن يُجازوا على إحسانهم بالإحسان ، وأن يكونوا في جنات النعيم ، يتقلبون في أرجائها ، ويعيشون في ظلالها ، ويشربون من أنهارها ، ويأكلون من ثمارها ، يغشاهم السرور ، ويظللهم الحبور ، وتحيط بهم نعم الله التي لا تحصى . فهم معجبون بها متلذذون ، بعيدون عن كل ما يعكر صفو حياتهم ، أو يكدر عليهم نَعِيمَهُمْ ، وبخاصة بعد أن أنقذهم الله من النار ، ووقاهم عذابها وآلامها .

بل إن الله تعالى قد جمع لهم من أنواع التكريم والإعزاز ما يزيد في سرورهم ، ويضاعف من نعيمهم ، فأينما ذهبوا وحيثما تنقلوا فلن

يسمعوا إلا كلامًا جميلًا ، وثناءً عطرًا ، يشعرهم بحسن ما قدموا من عمل صالح ، وأنهم يستحقون ماهم فيه من النعيم والتكريم . كما أنهم يجدون في هذه الأماكن التي يرتادونها ما يتكئون عليه من السرر المصفوفة ، والمقاعد المتناسقة المتقابلة . ومما يزيد في سرورهم وبهجتهم ما جعله الله إلى جانبهم من النساء الجميلات حسان الوجوه ، نجل العيون ، يؤنسنهم بحسن الحديث ، وعذوبة الكلام .

وحتى تكتمل فرحتهم بما صاروا إليه من النعيم فقد جمع الله بينهم وبين ذريتهم المؤمنة ، فجعلهم معهم في هذا النعيم ، وإن كانت مرتبة الذرية دون مرتبتهم ، وذلك حتى لا ينغص عليهم نعيمهم بُعدُ ذريتهم عنهم . كما أن هذا الفضل من الله في رفع أجر الذرية لا ينقص من أجر الآباء شيئًا ، ولا يتنافى مع مقام العدل الذي لا يؤاخذ الله فيه أحدًا بذنب أحد ، فكل إنسان مرتهنٌ بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبًا أو ابنًا .

وكما ألحق بهم ذريتهم فقد أمدهم بما هم بحاجة إليه ، مما تشتهيه أنفسهم من أصناف اللحوم ، وأطايب الثمار . كذلك جعل لهم شرابًا سائغًا يجتمعون عليه ، يتجاذبون كؤوسه في لعب وسرور ، ويتعاطونه في فرح ومَرَح ، فلا يسبب لهم صداعًا في الرؤوس ، ولا يأتون معه بما يلامون عليه من الأفعال والأقوال ، كما هي الحال في شراب الدنيا ، وما يصاحبه من السكر والعربدة والهذيان والإيذاء .

القائمون على خدمتهم :

أما خدمة هؤلاء المؤمنين المكرمين فقد جعلها الله من مهمة

غلمان صباح الوجوه ، رشيقي القوام ، جميلي الابتسام ، في مُحياهم وضاءةٌ ، وفي أجسامهم لطافة ، وفي بشرتهم بياض وصفاء ، لا يبدو عليهم أثر الخدمة ولا متاعب العمل ، فكأنهم في بياضهم وصفائهم وعدم امتهانهم بالخدمة والعمل قبل ذلك لؤلؤ مصون في صدفه ، لم تمسه الأيدي ، ولم يَتناقلهُ السادة .

مخافة الله الرحيم أنجتهم من عذابه :

وحينما يصل النعيم بهؤلاء المؤمنين إلى هذا المستوى الرفيع ، يجلس بعضهم إلى بعض ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتذاكرون ما كان من شأنهم في الحياة الدنيا ، أيام كانوا في أهلهم ، وبين إخوانهم ، خائفين من عذاب الله يوم القيامة ، وكيف كان هذا الخوف دافعًا لهم إلى عمل الخير ، وسببًا في بعدهم عن الشر ، مما جعل الله سبحانه يُنعم عليهم بهذا المصير الذي صاروا إليه ، ويدخلهم في رحمته ، ويسكنهم جنته ، ويقيهم عذاب جهنم ورياحها الحارة التي تنفذ في مسام الأجسام ، فتؤثر فيها تأثير السُّم .

لقد كانوا في الحياة الدنيا خائفين مشفقين من العذاب ، وكانوا يدعون الله دائمًا أن يبعدهم عن النار ، وأن يشملهم برحمته وعنايته . ولقد أجاب الله دعاءهم ، فوقاهم عذاب الجحيم ، وأدخلهم فسيح جنته ، وأغدق عليهم من واسع عطائه ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ولا عجب في ذلك فإنه تعالى رفيق بعباده ، رؤوف بأوليائه .

« فَذَكِّرْ
فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن
كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل
لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ
ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ

فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

فذكّر : جدّد التذكير بالقرآن ، ودُم عليه .

فما أنت بنعمة ربك : من الوحي والنبوة .

بكاهن : تخبر عما خفي من الماضي بطريق الظن .

ولا مجنون : تخبر بما جئت به عن طريق الجن . وذلك تكذيب للمشركين .

أم يقولون شاعر : بل يقولون عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه شاعر .

نتربص به ريب المنون : ننتظر أن يصاب بموت أو حادثة .

أم تأمرهم أحلامهم بهذا : أعقولهم تأمرهم أن يقولوا تلك الأقاويل الباطلة ؟!

أم هم قوم طاغون : بل هم قوم متجاوزون للحدود .

أم يقولون تَقَوَّلَهُ : اختلق القرآن ، وافتراه من عند نفسه .

فليأتوا بحديث مثله : فليأتوا بقرآن مثله يختلقونه بأنفسهم .

أم خلقوا من غير شيء : أوجدوا من غير موجد ؟!!

أم هم الخالقون : أم هم أوجدوا أنفسهم ؟!! والمعنى : لا هذا ولا هذا .. بل الله هو الذي خلقهم .

بل لا يوقنون : بالآيات الدالة على وحدانيته تعالى ، وصدق وعيده .

أم عندهم خزائن ربك : مفاتيح رحمته وخزائن رزقه .

أم هم المسيطرون : المتسلطون على الخلائق ، المستكبرون على الله .

أم لهم سُلَّمٌ : دَرَجٌ يرتقون به إلى السماء .

يستمعون فيه : الوحي فيدعون أنهم على حق .

فليأت مستمعهم بسلطان مبين : بحجة ظاهرة على صدق ما يدَّعي .

أم له البنات ولكم البنون : ألربكم ــ أيها المشركون ــ البنات ولكم البنون كما تدَّعون ؟!

فهم من مَغْرَمٍ مثقلون : فهم من عبء ما كلفتهم من الغرم لا يستجيبون لك .

أم عندهم الغيب فهم يكتبون : يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب .

أم يريدون كيدًا : يريدون مكرًا بك وبدعوتك .

فالذين كفروا هم المكيدون : أي : الممكور بهم دونك .

وإن يروا كسفًا من السماء ساقطا : أي : قطعًا من السماء نازلًا عليهم .

يقولوا سحاب مركوم : سحاب متراكم بعضه فوق بعض .

الذي فيه يصعقون : يموتون ويهلكون .

واصبر لحكم ربك : اصبر لقضاء ربك فيما حمّلك من رسالته .

فإنك بأعيننا : إنك بمرأى منا ، وتحت كلاءتنا .

وسبح بحمد ربك حين تقوم : نزه ربك حامدا إياه حين تقوم من نومك ومن مجلسك .

ومن الليل فسبّحه : عند صلاة المغرب والعشاء .

وإدبار النجوم : صلّ صلاة الفجر حين تُدبر النجوم عند إقبال النهار .

دفاع عن الرسول والقرآن :

بعد أن بين الله تعالى فيما سبق من الآيات طَرَفًا من مشاهد القيامة ، تمثّل صورًا من عذاب المشركين ، وصورًا من نعيم المؤمنين — يلتفت في هذه الآيات إلى خطاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — طالبًا إليه أن يَمْضِيَ في طريقه ، مذكّرًا الناس بما أنعم الله به عليه من القرآن ، مبشّرًا مَن استجاب لدعوته ، ومنذرًا من أعرض عنها ، غير عابئ بما يُلقى إليه من التهم الكاذبة ، والأقاويل الباطلة ، التي ينتحلها هؤلاء المشركون في شأنه وشأن هذا القرآن . فإن هذا القرآن وحي من الله لرسوله ، ونعمة كبرى خصّه

بها من دون الناس ، فليس شأن ما جاء به الرسول من القرآن في ذلك شأن كلام الكهنة الذين يرجمون بالغيب ، ولا شأن من أصيبوا بمسٍّ من الجن ، فهم يرددون ما توحي إليهم شياطينهم من زخرف القول ، ولا شأن الشعراء الذين يقولون الشعر ، ثم تأخذهم حوادث الدهر . وإذا كانوا يتربصون برسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يصاب بما أصيب به الشعراء قبله من حوادث الدهر المهلكة ، فقد طلب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يأمرهم بالتربص والانتظار وأن يخبرهم أنه يتربص معهم وينتظر ؛ لأن عاقبة ذلك لن تكون في مصلحتهم ، وإنما ستكون النهاية هلاكًا لهم ، ووبالًا عليهم ، فهو تهديد ووعيد .

مكابرة الكفار وعنادهم :

ثم تستعرض الآيات بعض ما كانوا يخوضون فيه من تلك الأباطيل والأكاذيب والمفتريات بأسلوب الاستفهام الإنكاري ، المتضمن التوبيخ والتقريع ، لعلهم أن يعودوا إلى أنفسهم ، ويفكروا في موقفهم . فلقد كان زعماء قريش يدّعون أنهم أصحاب عقول راجحة ، وأذهان نافذة ، أفهكذا يكون موقف أصحاب العقول ؟ أعقولهم تأمرهم بهذا ؟ فما أسوأها إذن من عقول !! والحقيقة أنهم لا عقول لهم تأمرهم بهذا ، بل لو رجعوا إلى عقولهم لمنعتهم عنه . ولكنهم طغَوْا ، وتجاوزوا الحد ، فهم لا يستعملون عقولهم ، ولا يرجعون إليها — وإلا فكيف تقبل عقولهم أن يقولوا بأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — جاء بالقرآن من عند نفسه ، ونَسَبَهُ إلى الله تعالى . وهم يعلمون أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب ؟ وأنه عاش أربعين سنة من حياته بينهم

لم يأت بشيء من مثل ما جاء به من القرآن ؟ ثم إن كانوا يَشُكّون بأن الرسول قد جاء به فليحاولوا هم أن يأتوا بحديث مثل أحاديث القرآن ، إن كانوا صادقين فيما يدّعون من تقوُّل الرسول . والحقيقة أنهم يعلمون أن ذلك كلّه لا يكون ، ولكنهم ينكرون ؛ لأنهم لا يريدون الإيمان بهذا القرآن ، فهم معاندون مكابرون .

كيف ينكرون التوحيد والبعث ؟!

وإذا كانوا عاجزين عن أن يأتوا بمثل حديث من القرآن في بيانه ونظمه ، فإنهم لا سبيل لهم إلى إنكار ما جاء به القرآن من التوحيد والمعاد ، لأنهم علموا أنهم لم يخلقوا من غير خالق : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ »[1] .

وكذلك فهم لم يخلقوا أنفسهم ، ولم يدّعوا ذلك ، ولا يدعيه من يحترم عقله وتفكيره ؛ لأن كل إنسان قبل أن يخلق كان معدومًا ، فكيف يُعْطِي المعدوم الوجودَ لنفسه ؟ كذلك فإنهم لم يخلقوا السموات والأرض : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ »[2] . وإذا كانوا مُقِرِّين بذلك كلّه معترفين به ، فما الذي يمنعهم إذن من الإيمان بالقرآن ، وبما جاء به من البعث والنشور ، والحساب والجزاء ؟

أليس الخالق لهم قادرًا على إعادتهم للحياة مرة ثانية ؟!

أو ليس الخالق للسموات والأرض — وخَلْقُهما أكبرُ مِنْ خلق

---

(١) سورة الزخرف/ آية ٨٧ .

(٢) سورة لقمان/ آية ٢٥ .

الناس ـــ قادرًا على أن يبعثهم بعد الموت ، وأن يجازي كل نفس بما قدمت من خير وشر ؟؟ لا شك أنه قادر على ذلك كلّه ، ولكنهم مع ذلك لا يوقنون بالآيات الدّالةِ على وحدانيته ، وصِدْقِ وعيده ، مما يجعلهم يشركون معه غيره ، وينكرون البعث والجزاء .

هل يملك الكفار خزائن الرحمة والرزق ؟

وإذا كانوا عاجزين عن الإتيان بحديث مثل القرآن في بيانه ، ولا يملكون حُجةً لإنكار ما جاءهم به من التوحيد والمعاد ـــ فقد أنكروا أن ينزلَ هذا القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه بِزَعْمِهِمْ ليس من أغنياء مكةَ أو الطائف ، كما أخبر الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ . »(١) . وهكذا يقول في هذه السورة : هل هم وكلاء الله على خزائنه ، والمسيطرون عليها ، حتى يوزعوا رحمة الله كيفما شاءوا ، فيعطوا النُّبوة والقرآن لرجل من أغنياء مكة أو الطائف ؟ ألا يَرَوْنَ أنهم لا يملكون زيادة نصيبهم من المعيشة الذي قسمه الله لهم في الحياة الدنيا ؟ فكيف إذن يتطاولون ويقترحون ، وكأنهم المالكون لخزائن الله ، المتصرفون فيها ؟!

القسمة الجائرة :

وإذا لم يكونوا خالقين ولا وكلاء الخالق والمالكين لخزائنه ، المتصرفين فيها ، فكيف إذن يقولون مالا يعلمون ، ويدّعون مالا يكون ؟

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

هل لهم سُلَّم يرتقون به إلى السماء ، فيستمعون إلى الملأ الأعلى ، فيأخذون علمهم عن هذا الطريق ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فليأت هذا المستمع منهم بحجة ظاهرة من الله على صدق ما يدّعي . ولقد ادَّعَوْا أن الملائكة إناث ، وأنهم بناتُ الله ، كما قال تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ »[1]. وقال: « إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ »[2] .

ثم كيف يجعلون لله البنات وهم يكرهون البنات ، ويخصون أنفسهم بالبنين ؟ « أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ »[3] ؟ . إنه التوبيخ والتشنيع على هذه القسمة الجائرة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

مزيد من التقريع والتوبيخ والتهديد :

وإذا كانت كل هذه الأقوال والادعاءات غير مقبولة منهم ، ولا معقولة ، ولا تصلح عذرًا للابتعاد عن الإيمان بهذا القرآن وما جاء به — فهل يمكن أن يكون الرسول — صلى الله عليه وسلم — كلَّفهم غرامةً مالية ؟ أو ضريبة أثقلت كواهلهم ، جعلتهم لا يستجيبون له ، ولا يؤمنون بما جاء به ؟! المعروف أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام — لم يفعل شيئًا من ذلك ،وهم يعلمون ذلك أيضًا . ولكن هذه الأسئلة للتوبيخ والتقريع على شناعة تصرفاتهم،وإذا كانت كل تلك الافتراضات السابقة لا تصح ولا تصلح دليلًا يستندون إليه في مواقفهم وافتراءاتهم ، فهل يمكن أن يقولوا : بأن ما

---

(١) سورة النجم/ الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة النجم/ الآية ٢٣ .

(٣) سورة النجم/ الآية ٢١ .

جاءوا به من ذلك كله كان نتيجة اطلاعهم على الغيب ، فهم يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب؟ لا شك أنهم لو قالوا ذلك ما وجدوا أحدًا يصدقهم ؛ لأنهم لا يملكون دليلًا على ذلك .... ولكنه التوبيخ ؛ فلم يبق إذن من تفسير لذلك كله إلا أنهم يهدفون إلى التآمر على الإسلام ، والكيد لأهله . وإذا كان هذا هو الهدف فإن الدائرة ستكون عليهم ؛ لأن الله لا بد أن ينصر رسوله والمؤمنين ، ويخذل أعداءه المتآمرين .

وإذا لم يكن لهم شيء من كل ما سبق من قبل الله — سبحانه وتعالى — فهل يمكن أن يكون لهم إله غيرُ الله — سبحانه وتعالى — أعطاهم شيئًا من ذلك ؟! هذا لا يمكن أن يكون أبدًا ؛ لأن الله سبحانه واحد أحد ، تنزه عن أن يكون له شريك أو ولد . ولكنه أسلوب التوبيخ والتقريع ، ينزل على رؤوسهم كمطارق الحديد ، وعلى ظهورهم كالسياط اللاذعة . وإذا كان كل ذلك لا يصح ، فإن ما أخبر به القرآن لا بد أن يتحقق ، والعذاب الذي وعد به المشركين لا بد أن يقع . ولكن هؤلاء المعاندين لو رأوا هذا العذاب في صورة قطعة من السحاب لقالوا : « سحاب مركوم » كما قال مَنْ قبلهم : « **هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** »[1] . فكان فيه العذاب الأليم الذي استعجلوه ، فما على الرسول إذن إلا أن يتركهم يخوضون ويلعبون حتى يُفاجؤوا بيومهم الذي يصعقون فيه بالهلاك والدمار ، ويومئذ لا ينفعهم كيدهم ولا تدبيرهم شيئًا ، كما لا يجدون معينًا أو نصيرًا يقف إلى جانبهم ، أو يدفع عنهم شيئًا من العذاب .

---

(١) سورة الأحقاف / آية ٢٤ .

سورة النجم

تمهيد :

سورة النجم سورة مكية ، وهي تبين بطلان مزاعم المشركين في شأن الوحي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتنفي عنه الغواية والضلال ، كما تنفي عنه أن يكون نطقه بالقرآن بناء على رغبته ، وهوى نفسه ، كما كان يدعي ذلك المشركون الجاهليّون . وتؤكد في الوقت نفسه أن هذا القرآن ليس إلا وحيًا أوحاه الله إليه عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ ولقد رآه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتين على صورته التي خلقه الله عليها : مرةً في (أجياد) في أوائل البعثة ، وقد اقترب منه غاية الاقتراب . ومرة ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ... فموضوع الوحي بالقرآن ، وأنه من عند الله ، يقين لا يتطرق إليه ظن ، وحق لا يداخله رَيْبٌ . غير أن الظنون والأوهامَ نجدها في معتقدات المشركين الجاهلين ، كما نجدالغواية والضلال في سلوكهم وتصرفاتهم . فهاهم أولاء يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، وهاهم أولاء يصنعون للملائكة رموزًا من التماثيل الحجرية يعبدونها ، ويقدمون لها القرابين ، لتشفع لهم عند الله .... وهاهم أولاء يُعرِضون عن الحق الذي جاء به القرآن ، فلا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وينكرون ما فيها من حساب وجزاء ، مكتفين بالحياة الدنيا ، مطمئنين إلى ما فيها . وهاهم أولاء يخالفون ما جاءت به صحف إبراهيم وموسى من أن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأنه لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، فيزعمون أن بإمكان

أحدهم أن يتحمل العذاب عن غيره ، أو بإمكانه أن يصل إلى ما يريد دون سعي أو عمل ، عن طريق بذل قليل من المال ، متناسين في ذلك كله أن الأمر بيد الله وحده ، وأنه لا يملك أحد معه شيئاً ، وأن إليه المنتهى ، وأنه أهلك مَنْ قبلهم من الأمم ، وأن ساعة الحساب باتت قريبة . فإلى أي شيء يستند هؤلاء المكذبون بالقرآن؟ وما أدلتهم على ما ذهبوا إليه في ذلك كله؟ وما العلم الذي يشهد لصحة ما يقولون؟ . . . .

لا شيء يجاب به عن ذلك كله . . .

لأنها الأوهام ، والظنون ، والأماني ، . . . . وليس هناك من العلم شيء .

وإذا كان الأمر كذلك فما عليهم إلا أن يتعظوا بآلاء الله وأفعاله العجيبة في إهلاك المكذبين السابقين ، وأن يعرفوا أن وقوفهم للحساب بين يدي الله سيأتي قريبًا ، وأنه لن يفيدهم في ذلك كلّه تَعجُّبهُم من هذا القرآن ، وأخْذُهم الأمورَ مأخذَ اللهو والضحك ، وأن البكاء أولى بهم وأجدر ، وأن عبادة الله والتقرب إليه بالسجود هو طريق النجاة الذي لا طريق سواه .

* * * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾
وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ
بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾
مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

والنجم إذا هوى : قسمٌ بالثريا إذا سقطت مع الفجر .

ما ضل صاحبكم : ماسلك الرسول — صلى الله عليه وسلم — على غير طريق واضح بغير علم .

وما غوى : لم يعدل عن الحق الذي علمه قصدًا إلى غيره .

وما ينطق عن الهوى : نطقه بالقرآن ليس عن هوى نفسه .

إن هو إلا وحي يوحى : ما هذا القرآن إلا وحي من الله أوحاه إلى رسوله .

شديد القوى : كثير القوى ، عظيم القدرة ،وهو جبريل - عليه السلام .

ذو مِرة : عظيم الخَلْقِ في ضخامة وطول وحُسْن .

فاستوى : قام سَوِيًّا معتدلًا ، يعني جبريل .

بالأفق الأعلى : مطلع الشمس الأعلى الذي يأتي منه النهار.

ثم دنا فتدلى : قرب جبريل من محمد — صلى الله عليه وسلم — وزاد في القرب .

فكان قاب قوسين : كان جبريل في قربه من محمد - صلى الله عليه وسلم- بمقدار طول قوسين .

أو أدنى : أو أقل من طول القوسين .

فأوحى إلى عبده ما أوحى : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد - صلى الله عليه وسلم- ما أوحى إليه ربه .

ما كذب الفؤاد ما رأى : ما كذب قلب النبي ما رآه بصره .

أفتمارونه على ما يرى : أفتجادلونه على ما رأى من آيات الله ؟

ولقد رآه نزلة أخرى : رأى محمد - صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته مرة أخرى ليلة المعراج .

عند سدرة المنتهى : عند الشجرة التي ينتهى إليها علم الخلائق ، وهي شجرة النبق .

عندها جنة المأوى : الجنة التي تأوي إليها الملائكة ، وأرواح المؤمنين .

إذ يغشى السدرة ما يغشى : تعظيم وتفخيم لما يغشاها من أمر الله ونوره وملائكته .

ما زاغ البصر وما طغى : ما مال بصر محمد - صلى الله عليه وسلم - يمينًا ولا شمالاً ، ولا جاوز ما أُمِرَ به .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى : رأى عجائب الخلق الدّالة على عظمة الرب - سبحانه وتعالى .

القسم بالنجم إذا هوى :

تبدأ السورة بالقَسَم بالنجم إذا هوى ــ وهو الثريا إذا سقطت نحو الغروب ــ مؤكدةً أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن على ضلال فيما خالف فيه قومه المشركين ؛ لأن سلوكه لم يكن على غير طريق واضح بغير علم ولا هُدىً . ولم يكن نتيجةَ غِوايةٍ وعدولٍ عن الحق بعد معرفته قصدًا إلى غيره ، وإنما كان نتيجة وحي أوحاه الله إليه ، لم يكن له أن يأتي به على رغبته ، أو ينطق به عن هوى نفسه . وإنما كان ينزل به (جبريل) الأمين ، فيعلمه للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وليس (جبريل) هذا شخصيةً

خيالية لا وجودَ لها ، وإنما هو مَلَكٌ كريم ، عظيم القدرة « شديد القوى » ، عظيم الخلق في ضخامة وطول « ذو مرة » . ولقد رآه الرسول — صلى الله عليه وسلم — على صورته هذه حين قام مستويًا معتدلًا بالأفق الأعلى ، حيث تطلع الشمس ، ويأتي النهار ، له ستمئة جناح ، كل جناح منها قد سَدَّ الأفق ، وكان ذلك في مكة أوائل البعثة . ثم ما زال جبريل يدنو ويتدلى مقتربًا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — حتى كان في قربه منه بمقدار طول القوسين أو أدنى من ذلك . ثم أوحى جبريل إلى عبد الله ونبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — من القرآن ما أوحاه إليه ربه . ولم يكذب فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - ما رأته عيناه ، وإنما صَدَّق ذلك ، وأكَّد وقوعه . فكيف تجادلونه في أمر قد رآه عيانًا ، وتلقّى وحيَه سماعاً ، واعتقده صدقًا ويقينًا ؟ !

دلالة القسم على المقسم عليه :

إن القسَمَ القرآني بالثريا إذا سقطت نحو الغروب . وبدت للرائي قريبةً متدلّيةً ، يقرِّبُ لنا فهم ما أقسم الله عليه من رؤية الرسول — صلى الله عليه وسلم — لجبريل ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دُنُوه وتَدليه إليه ، حتى كان منه في غاية القرب ، وكما أنه لا يمكن لذي البصر أن يشك في رؤية الثُّريّا — ذلك النجم الزاهر اللامع ، وهو يتدلى شيئًا فشيئًا نحو مسقطه في الغروب — كذلك لا يمكن لذي البصيرة أن يشك فيما رآه محمد — صلى الله عليه وسلم — من نزول جبريل ، وهو يتدلى إليه ، ويقترب منه .

وكما أن النجوم خلقها الله تعالى لنهتدي بها مصداقًا لقوله تعالى :
« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ »[1]
وأخبر أيضًا أن الناس يهتدون بها في قوله تعالى :
« وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ »[2] . وذلك لا يكون إلا لمن رأى النجم ، فأتاه منه نور ، كذلك من رأى الروح الأمين (جبريل) لابُدَّ أن يستضيء بنوره ، وما جاء به من الوحي . وكما أن النجم الكبير الزاهر اللامع يدلّ بسقوطه وغروبه على أنه مخلوق من مخلوقات الله ، لا يجوز لأحد أن يعبده . فكذلك الملَكُ (جبريل) وأمثاله من الملائكة مخلوقات من مخلوقات الله ، تنزل بأمره ، وتعرج بأمره ، فلا يجوز أن تكون في رتبة الألوهية ، كما كان يعتقد المشركون الجاهليون ، حيث كانوا يعبدونها ، ويتقربون إليها بالذبائح والقرابين ، بحجة أنها تشفع لهم عند الله .

لقد رآه نزلة أخرى :

ولم تكن رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل مرة واحدةً فقط . بل لقد رآه مرةً أخرى ليلة المعراج عند الشجرة المسماة «سدرة المنتهى» ، تلك التي ينتهي إليها علم الخلائق ، وتوجد عند هذه الشجرة « جنة المأوى » حيث يأوي إليها الملائكة المقربون ، وتصير إليها أرواح المؤمنين الصادقين . ولقد كانت هذه الرؤية وقت أن كان يَغْشَى السدرة ما يغشى من أمر الله ونوره وملائكته ، مما ترك القرآن تفصيله

---

(١) سورة الأنعام/ آية :٩٧ .
(٢) سورة النحل/ آية :١٦ .

وتحديده ، تعظيمًا لشأنه ، وتفخيما لأمره . وكان ذلك كله حقًا ويقينًا رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، لم يَمِل ببصره يمينًا ولا شمالًا ، ولم يتجاوز ما أُمِرَ به .

فلقد رأى عجائب الخلق الدالة على عظمة الرب وقدرته وبديع صنعه .

كذلك أشار القرآن الكريم إلى الرؤية التي رأى فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (جبريل) في مكة على صورته — في سورة التكوير حين قال عنه القرآن الكريم : « إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ »[1] . ونلاحظ هنا وصف (جبريل) . بالصفات نفسها التي وصف بها في سورة النجم ، فلا مجال إذن للمراء والجدال في صحة الرؤية ، وصدق الوحي ، فإن الروح الأمين (جبريل) كريم بنفسه ، فلا يكذب ، وذو قوة فلا ينسى ، وذو مكانة عند ذي العرش ، فهو حري بالأمانة ، بعيد عن الريب ، مُصَدَّقٌ من قِبَلِ العباد . وأما الأفق الأعلى فمبين ، وأما المكان فقريب ، فمرة كان قاب قوسين أو أدنى ، والمرة الثانية كان عند السدرة ، حيث كان النبي عندها أيضًا .

---

(١) سورة التكوير / الآيات من ١٩ إلى ٢٦ .

صفات جبريل والملائكة:

وقد عرفنا مما تقدم أن (جبريل) عليه السلام « شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ » كما جاء في هذه السورة، وأنه المقصود برسول كريم « ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ » كما جاء في سورة التكوير . وأمثال هذه الصفات تدلنا على عظم خلق الملائكة ، وشدة بأسهم وقوتهم الأمر الذي يبين فساد تصور الجاهليين عن الملائكة ، حين وصفوهم بالأنوثة ، وجعلوهم بناتا لله . فقوة الملائكة ، وشدة بأسهم ، تأبى هذا الوصف . والصحيح أن الملائكة مخلوقات من مخلوقات الله « لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة .

* * * *

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

٢ الآيات من (١٩) إلى (٢٥) من سورة النجم

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ
ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ
وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

أفرأيتم : توبيخ وتقريع للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان وتسميتهم الملائكة بناتًا لله .

اللات : صخرة بيضاء بالطائف ، اشتقوا اسمها من اسم « الله » يعنون أنها مؤنثة منه .

والعزى : شجرة بين مكة والطائف ، كانت قريش تعظمها . وهي تأنيث « العزيز » .

ومناة الثالثة الأخرى : صنم بين مكة والمدينة ، كانت تعظمه خزاعة والأوس والخزرج في الجاهلية .

ألكم الذكر : أتختارون لأنفسكم الذكور من الأولاد ؟

وله الأنثى ؟ : أتجعلون له ولدًا ، وتجعلونه أنثى ، وأنتم لا تحبون الأنثى ؟!

تلك إذا قسمة ضيزى : عوجاء جائرة ؛ لأنهم جعلوا لربهم ما لا يرضون لأنفسهم .

إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم : ما هذه الآلهة التي تعبدونها إلا أسماء اخترعتموها أنتم وآباؤكم ، لا حقيقة لها .

ما أنزل الله بها من سلطان : ليس عليها حجة من الله ولا برهان .

إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس : ما يتبعون إلا الأوهام ، وما تشتهيه الأنفس .

ولقد جاءهم من ربهم الهدى : ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير ، والحجة القاطعة .

أم للإنسان ما تمنى : ليس له ما تمنى . والمراد : طمعهم في شفاعة آلهتهم .

فلله الآخرة والأولى : الأمر كله لله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف فيهما .

أوهام المشركين في شأن الملائكة :

إذا كانت الآيات السابقة قد بيَّنت صدق الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه كان فيما جاء به من القرآن الكريم

متلقيًا عن (جبريل) الأمين الذي رآه بعينه مرتين ، وأنه لم يكن في ذلك على ضلال وغواية « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ » .

فلا شك أن المخالف له في ذلك هو الذي يكون في غواية وضلال ، وهو ما تؤكده هذه الآيات التي تتحدث عن ظنون المشركين وأوهامهم في شأن الملائكة ، وتسخر منهم ومن معتقداتهم الباطلة في ذلك ؛ لأنها لا تستند إلى علم ، ولا يؤيدها دليل . تبدأ الآيات بخطاب المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام التي صنعوها بأيديهم « اللات ــ العزى ــ مناة » والتي كانوا يزعمون أنها تماثيل للملائكة ، وأن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله تعالى . ولهذا فقد جعلوا هذه الأسماء مؤنثة . تبدأ الآيات بخطابهم بأسلوب الاستفهام الذي يفيد التعجُّب من هذه المعتقدات ، والتشهير بمعتقديها : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ » ؟ وكأنها تقول لهم : أما محمد فقد رأى (جبريل) مرتين كما سبق ، وأما أنتم «أفرأيتم اللات . .» كما رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟! شتان شتان بين رؤيته لجبريل ورؤيتكم لهذه الأصنام !! أما هو فقد رأى الحقيقة ناصعة بيضاء في رابعة النهار ، وأما أنتم : فمن أين لكم أن هذه التماثيل هي رموز للملائكة ؟ هل سبق لكم أن رأيتم الملائكة ، وعرفتموهم ، حتى تصنعوا لهم هذه التماثيل مطابقة لصورهم ؟! أم أن ذلك مجرد وهم وخيال ؟! وكيف عرفتم أن الملائكة إناث إذا كنتم لم تشاهدوهم ، ولم تسبق لكم بهم معرفة ؟! وإذا كنتم لم تشاهدوا ولم تعرفوا ، أفجاءكم علم صحيح يؤكد ما أنتم عليه ويؤيده ؟ أم أن ذلك كله دعوى بلا دليل ؟! ثم من أين لكم بعد كل ذلك أن

الملائكة بنات الله تعالى ؟! وهل عندكم ما يثبت صحة هذه الدعوى؟! أم أن ذلك كله تقوّل على الله بغير علم؟!

ويجعلون لله جل وعلا ما يكرهون:

ثم يفاجئهم بالاستفهام الإنكاري الساخر: « أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ » ؟ وهو بذلك يأخذهم بتصوراتهم، ويلزمهم نتائج منطقهم، كأنه يقول لهم: إنكم تحبون البنين، وتكرهون البنات. فكيف تجعلون البنين من نصيبكم، والبنات من نصيب الله؟! أتجعلون لأنفسكم ما تحبون، ولله ما تكرهون؟!! أهكذا تكون القسمة العادلة؟!! وإذن فإن قسمتكم هذه جائرة كل الجور، وبعيدة عن العدل والإنصاف كل البعد « تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ». وهو يريد بذلك الأسلوب السخرية منهم، ومن ظنونهم وأوهامهم التي لا تجد لها دليلاً من العلم ترتكن إليه، أو مستنداً من الواقع تعتمد عليه.

اتباع الظن وهوى النفس:

ثم يبين لهم أن هذه الأسماء «ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ» وتسميتهم للأصنام باعتبارها رموزًا للملائكة، وتسمية الملائكة إناثًا، وتسمية الإناث بنات الله، كلها أسماء لا مدلول لها، ولا حقيقة وراءها، وليس لهم فيها حجة، ولم ينزل الله بها سلطانًا: « إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ».

نعم لقد جاءهم من ربهم الهدى في شأن الملائكة وفي كل شأن ، وكان بإمكانهم أن يكونوا على يقين في معتقداتهم وسلوكهم تجاه الملائكة وتجاه غيرهم ، ولكنهم أعرضوا عن هداية الله ، واعتمدوا الظن بدل اليقين ، وتابعوا أهواءهم ، وما تشتهيه الأنفس ، وتمنّوا على الله الأماني ، وظنوا أن عبادتهم للملائكة تشفع لهم عند الله تعالى ، وتقربهم منه زلفى ، فيغفر لهم شركهم وذنوبهم ، متناسين أن الأمر كله بيد الله تعالى وحده ، وأنه صاحب الشأن في الدنيا والآخرة ، لأنه المالك للآخرة والأولى .

* * * *

* وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ
وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ
إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ
أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

وكم من مَلَكٍ في السموات	: كثير من الملائكة .
لا تغني شفاعتهم شيئًا	: لا تفيد مع أنهم مقربون عند الله تعالى .
إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى	: فكيف إذن ترجون شفاعة الأصنام التي تعبدونها وتزعمون أنها تماثيل الملائكة ، مع أن الله تعالى لم يشرع ذلك ، ولا أذن به .
لَيُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثى	: بزعمهم أنهم بنات الله تعالى .
إن يتبعون إلا الظن	: ما هم عليه في شأن الملائكة ليس إلا وهمًا ، لأنه لا يقوم على علم صحيح .
فأعرضْ عمَّن تولى عن ذكرنا	: اهجر من لم يلتفت لما جئنا به من الحق .
ذلك مبلغهم من العلم	: ما وصلوا إليه من العلم لا يزيد على طلب الدنيا ، والاهتمام بها .
ليجزي الذين أساءوا بما عملوا	: ليعاقبهم بالنار بسبب عصيانهم وسوء أعمالهم .
ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى	: يثيبهم على طاعتهم بالجنة .
الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش	: يبتعدون عن الشرك والذنوب الكبيرة .
إلا اللَّمم	: صغائر الذنوب التي يصعب التحرز عنها . أو الذنب يُلِمُّ به الإنسان ثم يتوب منه .

إن ربك واسع المغفرة	: يشمل بعفوه ورحمته كل الذنوب لمن تاب منها .
هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض	: بصير بكم ، عالم بما يقع منكم حين خلق أباكم آدم من الطين .
وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم	: وحين كنتم حَمْلاً في ارحام امهاتكم قبل أن تولدوا .
فلا تزكوا أنفسكم	: لا تمدحوها ، وتشهدوا لها بالصلاح ، والبعد عن المعاصي .
هو أعلم بمن اتقى	: بمن خاف العقوبة ، فاجتنب المعصية .

لا شفاعة إلا بأمر الله :

تبين هذه الآيات الكريمة أن الملائكة المقربين عند الله تعالى في سماواته العلا ، والذين سماهم المشركون إناثًا ، وجعلوهم بناتٍ لله — سبحانه — وعبدوهم بعد أن جعلوا الأصنام رموزًا لهم ، وقرّبوا لها القرابين طمعًا في أن تشفع لهم عند الله .... هؤلاء الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئًا إلا بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة ، ويرضاها منهم ، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الشفاعة من مشرك ؛ لأنه لا يغفر الشرك « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ »[1] وقد أشرك هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة حينما ادّعَوْا بأن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، وتقربوا إليهم بالعبادة دون أن يكون لهم في ذلك مستند من العلم ، أو شبهة من الحق . وأنهم جروا في ذلك على ظنون صدقوها ، وأوهام تخيلوها ، لا تغني من

---

(١) سورة النساء / آية ١١٦ .

الحق شيئًا . فكيف يطمعون إذن في شفاعة الملائكة لهم بعد كل هذا ؟!!

أمر الرسول بالإعراض عن الضالين المؤثرين للدنيا :

لا شك بأن هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر الله تعالى الذي جاءهم به رسوله (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من الحق والهدى ، وآثروا أن يسيروا خلف ظنونهم الخادعة ، وأوهامهم الكاذبة ، لا شك بأن هؤلاء جديرون ألا يلتفت إليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن يعرض عنهم وألا يأبه بهم ، لأنهم بإعراضهم عما جاء به قد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، بل إنهم لم يؤمنوا بالآخرة أصلًا ، ولم يقبلوا أن يتصوروا حياة ثانية للإنسان بعد هذه الحياة الدنيا : « بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ »[1]. فمثل هؤلاء الذين وقف علمهم عند حدود هذه الحياة الدنيا ، واقتصر عملهم على تحصيل ما فيها ، قد ضلوا طريق الهدى ، وأمعنوا في الغواية والانحراف ، فلا ينبغي للرسول أن يشغل نفسه بهم ، بل عليه أن يتركهم لله الذي يعلم الضّال من المهتدي .

الجزاء من جنس العمل :

لله تعالى هذا الكون وما فيه ؛ فهو خالقه ومالكه والمتصرف فيه ، والعالم بالضال والمهتدي ، فهو سبحانه وحده القادر على أن

(١) سورة ق/ الآيتان ٢ ، ٣ .

يأخذ الكفار بأعمالهم ، وأن يجازيهم بما اقترفت أيديهم ، وأن يذيقهم من العذاب مايستحقون . كأنه قادر أيضًا على الإحسان بإثابة المؤمنين الصادقين الذين استجابوا لدعوة الله تعالى ، وآمنوا برسوله ، وعملوا بما أمرهم به ، وتركوا ما نهاهم عنه من كبائر الذنوب ، وفواحش العيوب . أما الذنوب الصغيرة التي يصعب التحرز منها ، أو الذنب الكبير الذي رُبَّما ألَمَّ به المؤمن في لحظة ضعف ، ثم رجع عنه ، وتاب إلى الله تعالى منه - فلا شك في أن الله سبحانه - يغفر ذلك للمؤمن ، لأنه واسع المغفرة ، ولأنه يعلم ضعف الإنسان إذ خلقه من طين الأرض ، وإذ هو جنين في بطن أمه . وهذا يعني أن الضعف الإنساني ملازم للإنسان في كل حالاته وأطواره ، ومن كان كذلك كان عرضة للوقوع في الإثم ، فلا ينبغي للناس أن يزكيَ بعضهم بعضًا ، ولا أن يشهد بعضهم لبعض بالبعد عن المعاصي والآثام ، لأنهم لا يطلعون على كل أحوالهم ، ولا يعرفون كثيراً من أسرارهم ، وعليهم أن يتركوا ذلك لمن لا تخفى عليه خافية ، فهو الذي يعلم من أطاعه وأتقاه ، ومن ترك أوامره وعصاه .

* * * *

« أَفَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ
رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾

أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾
أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ۩ »

معاني الكلمات والجمل :

أفرأيت الذي تولّى : أرأيت الذي أعرض عن ذكرنا .
وأعطى قليلًا : من المال .
وأكدى : منع ما كان يعطيه وقطعه .
أعنده علم الغيب فهو يرى: ليس عنده علم الغيب ، وليس ما يراه ويعمله مبنيًّا على علم .
أم لم ينبأ بما في صحف موسى : أم لم يُخْبَر هذا المتولي المانع بالذي في صحف موسى ؟
وإبراهيم الذي وفى : نفذ كل ما أمر به من الطاعة على وجه الكمال والتمام .
ألاّ تزر وازرة وزر أخرى : لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .
وأن ليس للإنسان إلا ما سعى : لا يجازى عامل إلا بعمله .
وأن سعيه سوف يُرى : يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة .
ثم يجزاه الجزاء الأوفى : يجزى بعمله الجزاء الأتمّ الأكمل ، خيرًا كان أو شرًّا .

وأن إلى ربك المنتهى : إلى الله مرجع الخلق ــ لا إلى غيره ــ للديتونة والجزاء .

وأنه هو أضحك وأبكى : جعل الإنسان قادرًا على الضحك والبكاء .

وأنه هو أمات وأحيا : أمات الحي بأخذ الحياة منه ، وأحيا الميت ببث الحياة فيه .

وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . : ليتم عن طريقهما التناسل والتكاثر .

من نطفة إذا تمنى : من قطرة ماء الرجل إذا قذفت في الرحم . فقدر لها الحياة والخلق .

وأن عليه النشأة الأخرى : إعادة الناس إلى الحياة يوم القيامة .

وأنه هو أغنى وأقنى : أعطى أصول المال ، وما يدخر بعد الكفاية .

وأنه هو رب الشعرى : وهو كوكب وقّاد يطلع بعد الجوزاء ، وكان يُعْبَدُ من قِبَل بعض الجاهليين .

وأنه أهلك عادًا الأولى : وهم قوم هود ، عليه السلام .

وثمود فما أبقى : ثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ دمّرهم ، فلم يُبق منهم أحدًا .

وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى : أشد تمردًا من الذين من بعدهم .

والمؤتفكة أهوى : مدائن قوم لوط ، حيث جعل عاليها سافلها .

فغشاها ما غشى : غطّاها بالحجارة الكثيرة التي أنزلها عليها .

فبأي آلاء ربك تتمارى : فبأي فِعالِ الله العجيبة الدّالة على قدرته ترتاب وتجادل ؟

هذا نذير من النذر الأولى	: هذا الذي نزل بالأمم السابقة نذير لهذه الأمة ، لتعتبر به .
أزفت الآزفة	: اقتربت القريبة (القيامة) .
ليس لها من دون الله كاشفة	: لا يطلع على علمها سواه ، ولا يكشف ضررها غيره .
أفمن هذا الحديث تعجبون	: أتعجبون أن يكون هذا القرآن وما جاءكم به صحيحًا ؟!
وتضحكون	: منه استهزاء وسخرية .
ولا تبكون	: كما يفعل الموقنون به .
وأنتم سامدون	: لاهون معرضون مستكبرون .

نموذج للمعرضين عن الهُدى :

لقد طلب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما سبق من الآيات أن يعرض عمن تولى عن ذكر الله تعالى ، ولم يُرد إلا الحياة الدنيا . وفي هذه الآيات عرض لنموذج من المعرضين عن ذكر الله تعالى ، والذين كان إعراضهم بعد استجابة أوّليّة . وقد رُوِيَ أن هذه الآيات نزلت في (الوليد بن المغيرة) الذي كان قد اتبع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على دينه ، ثم جاءه أحد المشركين يعاتبه على ذلك ، ويضمن له إن رجع عن الإسلام إلى الشرك ، وأعطاه شيئًا من المال ، فإنه سيتحمل عن (الوليد) مقابل ذلك عذاب الآخرة . غير أن (الوليد) أعطاه بعض ما وعده من المال ، ثم منعه الباقي ، وقطع عطاءه . وقيل : إنها نزلت فيمن تولى عن طاعة الله عمومًا بعد أن أنفق قليلًا في سبيل الله ، ثم انقطع عن البذل والعطاء خوفًا من الفقر .

وأيا ما كان الأمر ففي هذه الآيات تعجّب من شأن هذا المتولي ، الذي ظن أنه بعطائه القليل يمكن أن يُفْلِتَ من عذاب الله ، ومن أين له ذلك ؟ هل يعتمد في تصرفه هذا على علم بالغيب بأنه سيفتقر ، وينفد ما في يده من مال إن استمر في عطائه وإنفاقه ، فكأنه يرى ذلك عيانا ؟! ليس الأمر كذلك ؛ لأنه أمسك عن الصدقة والمعروف والبِرّ والصِّلة بُخْلًا وشُحًّا . أم أن هذا الذي أعطى صاحبه قليلًا من المال ليتحمل عنه عذاب الآخرة اطّلع على علم الغيب ؛ وعرف أن الله يقبل ذلك ، ويمنع عنه العذاب؟ !! لاشك أن شيئًا من ذلك لم يكن ، بل المعروف عن هؤلاء الناس غير ذلك .

ألم يعلموا ما بصحف إبراهيم وموسى-عليهما السلام ؟

إنهم يعرفون مما جاء قبلهم في صحف (موسى) عليه السلام ، و(إبراهيم) الخليل - الذي وفى بطاعة الله تعالى ، وأدّى رسالته إلى خلقه - أمورًا منها :

— أن كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها ، لا يحمله عنها أحد . وكذلك لا يحصل للإنسان من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه ، وأن سَعْيَ الإنسان بما فيه من خير وشرٍّ سيُرى يوم القيامة ؟ حين يُعْرَضُ للحساب ، وسينال كلُّ إنسان جزاءه الأتمَّ الأكمل على ما قدّم من عمل صالح ، أو عمل سيء .

- وأن منتهى العباد يوم القيامة إلى الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء ، والذي لا ينفع عنده مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ـــ وأن الله ـــ سبحانه ـــ هو الذي أعطى الإنسان خاصيَّة الضحك والبكاء دون بقية المخلوقات ، وجعل للضحك أسبابه ودواعيه ، وللبكاء أسبابه ودواعيه ، فترى الإنسان يضحك لهذا ، ويبكي لهذا . وقد يضحك غدًا مما أبكاه اليوم ، ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس .... وكم من ضاحك في الدنيا باكٍ يوم القيامة !! .

ـــ وأن الله تعالى خلق ظاهرتي الموت والحياة، فبثّ الحياة في الجامد والموات ، فإذا هو حي يتحرك ، واستلب من الحي حياته ، فإذا هو ميت لا حراك فيه .

ـــ وأن الله تعالى هو الذي خلق الرجل والمرأة من نطفة الذكر التي تُراقُ في رحم الأنثى ، وهو الذي أودع تلك النطفة خصائص الذكورة والأنوثة ؛ لتكون بعد ذلك جنينًا ذكرًا أو جنينًا أنثى .

ـــ وأن الله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان في الحياة الدنيا ـــ فبث فيه الحياة بعد أن لم تكن ، وجعل له خاصية الضحك والبكاء ، وجعله زوجين ذكـرًا وأنثى - وهو قـادرٌ ولا شكّ في أن ينشئـه النشـأة الأخـرى يوم القيامة ، وأن يعيده إلى الحياة بعد الموت ، لأن خلق الإنسان من رفاتٍ وعظامٍ باليةٍ ليس بأصعب من خلقه من نطفة .

ـــ وأن الله تعالى خلق الإنسان ، وقذف به إلى الحياة ، لم يتركه ولم يهمله ، وإنما جعل له من المال ما يواجه به حاجاته الواقعة ، كما جعل له منه ما يدّخر لمواجهة حاجاته المتجددة المتوقعة .

ـــ وأن الله كما خلق الإنسان خلق كذلك كل ما في هذا الوجود ، ومن جملة ما خلق ، ذلك النجم الوقّاد المسمّى « الشعرى » وهو نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعفًا من نور الشمس ، وهو أبعد عنا من الشمس بمليون ضعف ـــ وقد خصّه

الله تعالى بالذكر ؛ لأن بعض الجاهليين كانوا يعبدونه ، مع أنه ليس إلاّ مخلوقًا من مخلوقات الله تعالى .وهذه كلها ظواهر من ظواهر الخلق والحياة ، تتبدّى فيها قدرة الله تعالى على الإحياء والإيجاد .

قدرة الله تعالى على إهلاك الطغاة :

أما قدرته على الإهلاك والإماتة فتتجلى في إهلاك الكافرين ، ومصارع الغابرين :

ـــ فقد أهلك عادًا الأولى قوم (هود) عليه السلام ، كما أشار إلى ذلك في سورة الذاريات : « وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ » .(١)

وكما أشار إليه في سورة الحاقة : « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ »(٢) .

وكما أشار إليه في سور أخرى ..... ـــ .

ـ وكذلك أهلك ثمود قوم (صالح) ـ عليه السلام ـ فلم يُبق لهم أثرًا ، كما أشار إلى ذلك في سورة الذاريات : « وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ

---

(١) سورة الذاريات / الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة الحاقة / الآيات ٦ ـ ٨ .

يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ »[1] . وكما أشار إلى ذلك في سورة الحاقة: « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ».[2]

ـــ كما أهلك عادًا وثمود فقد أهلك من قبلهم قوم (نوح) عليه السلام ، فقد كانوا أكثر ظلمًا ، وأشدَّ طغيانًا من عاد وثمود . وقد أشار إلى ذلك فيما سبق من سورة الذاريات : « وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ »[3]. كما أشار إليه في سورة الحاقة بقوله : « إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ »[4]. وكما أشار إليه في سور أخرى كثيرة .... ـــ .

ـــ وكذلك أهلك قوم (لوط) عليه السلام بقلب قريتهم وتدميرها وتغطيتها بالحجارة ، كما سبق أن أشار إلى ذلك في سورة الذاريات : « قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ »[5] . وكما أشار إلى ذلك « المؤتفكات » في سورة الحاقة بقوله : « وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ »[6] . وكما أشار إليه في سور أخرى .... ـــ .

ولا شك في أن هذه الفعال العجيبة من قدرة الله تعالى على الإحياء

---

(١) سورة الذاريات / الآيات ٤٣ - ٤٥.
(٢) سورة الحاقة / الآية ٥ .
(٣) سورة الذاريات / الآية ٤٦ .
(٤) سورة الحاقة / الآية ١١ .
(٥) سورة الذاريات / الآيات ٣٢ - ٣٤.
(٦) سورة الحاقة / الآيتان ٩ ، ١٠ .

والإماتة ، والإنعام والانتقام في الحياة الدنيا لا تترك مجالًا للمراء والجدال في قدرته تعالى على إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت ، ومجازاته على ما قدم بما يستحق من ثواب أو عقاب .

ـــ كما أن ما ذكر من معاقبة الأمم السابقة في الحياة الدنيا ، يعتبر إنذارًا لمن جاء بعدهم بأنه سيصيبهم مثل ما أصاب السابقين ، إذا ساروا على طريقتهم ، واقتفوا آثارهم ، ولم يعتبروا بما نزل فيهم من الدمار والهلاك .

اقتربت الساعة :

– وإذ قد علمتم قدرة الله تعالى على الخلق والإيجاد ، والبعث بعد الموت ـــ فاعلموا أن القيامة وما فيها من ثواب وعقاب ليست بعيدة عنكم ، فهي قريبة غاية القرب ، بل إنها لتقترب منكم يوما بعد يوم ، واعلموا أيضا أن وقتها ليس معلوما ولا مكشوفا إلا لله ، وأنها إذا جاءت فلا كاشف لما تأتي به من الأهوال والبلايا إلا الله .

ـــ وإذا كان الأمر كذلك ، فما عليكم إلا أن تستعدّوا لذلك اليوم الرهيب ، والذي لن ينفعكم فيه أن تتعجبوا مما أخبركم به القرآن الكريم عنه . فالأمر جدٌّ لا هزل ، ولا مجالَ فيه للضحك والاستهزاء ، بل حقكم أن تبكوا على أنفسكم مما سيصيبكم في ذلك اليوم ، وأن تقلعوا عما أنتم فيه من اللهو والعبث والاستكبار ، وأن تتوبوا إلى الله مما أنتم فيه من الشرك والمعاصي ، وأن تتقربوا إليه بالسجود والعبادة ، والتذلل والخضوع .

* * * *

سـورة القمـر

تمهيـد :

عرفنا في المقطع الأخير من سورة النجم أن نهاية كل شيء إلى الله عز وجل ، وأنه هو ينشئ الإنسان النشأة الأخرى يوم القيامة ، وأنه أهلك المكذبين من قوم عادٍ وثمود ، وقوم نوح ولوط (عليهما السلام) وأن تعذيب هؤلاء القوم في الدنيا إنذار لمن جاء بعدهم ، ودليل على العذاب الأكبر يوم القيامة ، وأن هذه القيامة آتية لا شك فيها ، وقد اقترب موعدها ، وأزفت ساعة مجيئها .

وسورة القمر التي جاءت في ترتيب التلاوة ــ في المصحف ــ بعد سورة النجم ، إنما هي تفصيل وبيان لما جاء في ذلك المقطع الأخير من سورة النجم ، ويمكننا أن نقسم ما جاء في سورة القمر على ستة مقاطع :

١ ــ تحدثت السورة في مطلعها عن اقتراب الساعة التي كان يجادل فيها المشركون ، وذكرت انشقاق القمر الذي حدث في مكة في عهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه آية دالة على اقتراب الساعة لمن يريد آية على ذلك . ثم عرضت لموقف المشركين من الآيات عمومًا ، وإعراضهم عنها ، وتكذيبهم بما جاءهم به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أبناء الأمم السابقة . كما عرضت لهم مشهدًا من مشاهد القيامة ، حيث يخرجون من قبورهم مسرعين خائفين يقولون : « هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » .

٢ ــ وفي المقطع الثاني تحدثت عن تكذيب قوم (نوح) عليه السلام لنبيهم ، وبينت كيف نصر الله تعالى نبيه نوحًا ــ عليه السلام ــ وأنجاه وَمَنْ آمن معه من الطوفان الذي أغرق به

المكذبين ، وأن في ذلك آية لمن جاء بعدهم .

٣ ــ وفي المقطع الثالث تحدثت عن تكذيب « عاد » لنبيها (هود) عليه السلام ، وكيف عذّبهم الله بالرياح الشديدة والبرد في يوم النَّحْس المستمر .

٤ ــ وفي المقطع الرابع تحدثت عن « ثمود » قوم (صالح) عليه السلام ، وموقفهم من نبيهم ، وتكذيبهم بما جاء به . كما تحدثت عن الناقة التي جعلها الله آية لهم على صدق نبيهم ، وكيف عقروا هذه الناقة ، واستحقوا بذلك غضب الله وعذابه .

٥ ــ وفي المقطع الخامس كان الحديث عن قوم (لوط) عليه السلام ، وكيف أهلكهم الله بعد أن كذّبوا نبيه (لوطًا) ــ عليه السلام ـ ولم يأبهوا لما أنذرهم به من العذاب ، إنما استمروا على ما هم عليه من فعل الفواحش والمنكرات .

٦ ــ وفي المقطع السادس حديث عن آل فرعون ، وتكذيبهم للرسل ، وما جاءوا به من الآيات ، وكيف أخذهم الله بذنوبهم ، ثم يلتفت الخطاب إلى قوم الرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم ، مبينًا لهم أن الذين كفروا منهم ليسوا خيرًا من الكافرين السابقين الذين أهلكوا ، وأن مصيرهم كمصير أولئك ، بل موعدهم العذاب الأكبر يوم القيامة ، حيث يواجهون الجزاء العادل لما اقترفوه من صغير الذنوب وكبيرها .

وفي مقابل مشهد العذاب الذي ينتظم المشركين المكذبين ، تختتم السورة ببيان مكانة المؤمنين الصادقين عند الله تعالى، وما هم فيه من جنان وأنهار، ليظهر الفارق البعيد بين أهل الجنة وأهل النار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

اقتربت الساعة : دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة .

وانشق القمر : انفلق فلقتين ــ وكان ذلك على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة قبل هجرته إلى المدينة .

وإن يروا آية : حجة وعلامة على صدق ما جاءهم به النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ (معجزة) .

يعرضـــوا	: عن الانتفاع بها ، والاعتبار بدلالتها .
ويقولوا سحر مستمر	: قوي دائم
وكل أمر مستقر	: ثابت ومستمر حتى ينتهي إلى غايته .
ولقد جاءهم من الأنباء	: من أخبار الأمم المكذبة قبلهم .
ما فيه مزدجر	: ما يزجرهم ويردعهم عما هم فيه من التكذيب .
حكمة بالغة	: ما جاءهم به القرآن .
فما تغني النذر	: أي شيء تغني النذر عمَّن أعرض عنها ؟ والمعنى : لا تغني شيئا .
إلى شيء نكر	: إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب .
خشَّعًا أبصارهم	: ينظرون نظرة الخاضع الذليل .
يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر	: يقومون من قبورهم ، يموج بعضهم في بعض فِعْل الجراد المنتشر .
مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر	: مسرعين إلى الداعي . يقول الكافرون هذا يوم صعب شديد .

المشركون .. واقتراب الساعة :

لقد أخبرت سورة النجم بقرب القيامة « أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ »[1] وها هي ذي سورة القمر تؤكد ما أخبرت

---

(١) سورة النجم / الآيات ٥٧ ، ٥٨ .

به سورة النجم من اقتراب الساعة التي تقوم فيها القيامة ، وتجعل انشقاق القمر الذي حدث في زمن الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ آية وعلامة على ذلك ، لأن قريشًا كانت تكذب بالقيامة ، وتستبعد وقوعها ، وتجادل رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في شأنها ، وتطلب آية دالّة على ذلك .

وقد جاء في رواية الترمذي ٢١٠٨ : « إن أهل مكة سألوا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراءً بينهما » ، وفي الترمذي رقم ٣٢١١ عن عبدالله بن مسعود ، عن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل . فقالوا سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلَّهم » . ولا شك في أن انشقاق القمر يدل على اقتراب القيامة ، ويُؤْذِنُ بما سيتعرض له الكون من دمار شامل ، فتنفطر السماء وتتشقق ، وتنتثر الكواكب وتتهاوى ، ويُجمع الشمسُ والقمر ، وتُطْوَى صفحة الكون .

إعراض قريش عن النذر والآيات :

غير أن قريشا كذبت بهذه الآية كما كذبت بغيرها من الآيات ، وادّعت أن (محمدًا) - صلى الله عليه وسلم - سحر أعين الناس ، حتى رأوا القمر شقين ، وأن سحره هذا لا يلبث أن يزول ، وكذلك سيكون موقفهم من كل آية يرونها . فليس الذي ينقصهم هو وجود الآيات ، وإنما نقصهم في الإعراض عنها ، وعدم الالتفات إلى دلالتها ، وادّعائهم بأن ذلك كلّه « سحر مستمر » . وهم في الواقع يكذبون بما جاءهم به رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من أمر القيامة وغيرها لأنهم

لا يريدون أن يتركوا ما ألفوه من اتباع الهوى ، والسير في طريق الرَّدَى . ولكن عليهم أن يعلموا أن كل أمر سيمضي إلى غايته ، وينتهي إلى مستقره ، وأن القيامة التي يستبعدون وقوعها ، ويستبطئون مجيئها ، هي في طريقها إليهم . فليس من مصلحتهم أن يتعجلوها ، أو يتعجلوا عذابها سخريةً واستهزاءً ، فهي آتية في موعدها المحدد لها في علم الله تعالى ، ولن تتقدّم عن ذلك بناء على طلب طالب ، أو استعجال مستعجل ، وكل آت قريب .

اشتمال القرآن الكريم على الحِكَم والعِظاتِ البالغة في الزجر :

وقد كان لهؤلاء المشركين فيما جاءهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن الكريم ، وماتضمنه من أنباء القيامة ، وأخبار الأمم السابقة ، وما حوته آياته من العظات الزاجرة ، والحكم البالغة ـ ما يغني عن طلب الآيات المادّية ، والمعجزات الحسّية ، ولكنهم أعرضوا عن القرآن وآياته ، وقالوا : « إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ[1] » . كما أعرضوا عند رؤية انشقاق القمر ، وكما يعرضون عند رؤية كل آية « وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » .

فمثل هؤلاء المعرضين عن الآيات لا ينفع معهم إنذار ، ولا تفيدهم موعظة .

أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بتركهم إلى اليوم الموعود :

أمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يعرض عنهم ، وألا يلتفت إليهم ، وألا يشغل نفسه بهم ، وأن يتركهم لليوم الموعود الذي ينادي فيه لأمر عظيم فظيع لا يعرف ما هو ، وذلك كناية عن

---

(١) سورة المدثر / الآية ٢٤ .

شدة الهول والخوف ، فيخرج الناس من قبورهم ، في نظراتهم ذلة ، وفي عيونهم انكسار ، يموج بعضهم في بعض ، كما يموج الجراد المنتشر ، وهم يسرعون الخطا إلى جهة المنادي ، وقد مدّوا إليه أعناقهم في ذهول ، ونظروا إليه في حيرةٍ وشرود . وإذ ذاك « يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أي شديد صعب مخيف .

« * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى
ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا : كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح بتكذيبهم عبدنا نوحًا .

وقالوا مجنون وازدجر : قالوا : هو مجنون ، وزجروه بالسبب وغيره وتوعّدوه

فدعا ربه أني مغلوب فانتصر : أي أني ضعيف عن مقاومتهم ، فانتصر لدينك بمعاقبتهم .

ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر : بمطر سريع الانصباب .

وفجرنا الأرض عيونا : جعلنا الأرض عيونا وينابيع يتفجر منها الماء .
فالتقى الماء على أمر قد قُدر : اجتمع ماء السماء وماء الأرض على أمر وقع تقديره في الأزل وهو هلاكم غرقاً .
وحملناه على ذات ألواح ودُسُر : وحملنا (نوحًا) على سفينةٍ ذات أخشاب ومسامير .
تجري بأعيننا : بمرأى منا ورعاية وحفظ .
جزاءً لمن كان كُفر : أي : عقوبة لهم على كفرهم وانتصارًا لنوح عليه السلام .
ولقد تركناها آية فهل من مدكر : أبقينا السفينة عبرة وعظة للأمم . فهل من يتذكر بذلك ويعتبر ؟
فكيف كان عذابي ونذر: فكيف كان عذابي للكافرين بنوح ؟ وكيف كان إنذاري لهم بالعقوبة ؟!
ولقد يسّرنا القرآن للذكر: سهّلنا قراءته للاتعاظ والاعتبار .
فهل من مدكر : فهل من معتبر متعظ بما فيه من العبر والذكر ؟!

في قوم نوح آية وعبرة :

عرفنا مما سبق من الآيات أن ساعة القيامة قريبة ، وأن انشقاق القمر في زمن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان آية على ذلك ، وأن المشركين كذّبوا بهذه الآية . كما كذبوا بما سبقها ، وكذلك يكون شأنهم فيما يرون من الآيات مستقبلًا ، وأن على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يتركهم لمصيرهم المحتوم الذي ينتظرهم في جهنم .

وفي المقطع الثاني من سورة القمر نطالع الآيات المتصلة بقوم (نوح) عليه السلام ، الذين كذبوا نبيّهم نوحا ، كما كذب المشركون محمدًا صلى الله عليه وسلم ، وقد استمر نوح عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وتوحيده ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وقد دعاهم ليلًا ونهارًا ، وسرًّا وإعلانًا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا ، فكذبوه وأعرضوا عما جاءهم به ، ولم يؤمن معه منهم إلا قليل ، ولم يكتفوا بالإعراض والتكذيب ، وإنما لجؤوا إلى الإيذاء والاتهام بالجنون . بل لقد هدّدوه وتوعدوه ، مفترين بكثرة عددهم ، ووفرة قوتهم ، ومستهزئين بقوة (نوح) عليه السلام ، وقلة أتباعه . فلم يكن من (نوح) عليه السلام ، بعد أن يئس من استجابتهم لدعوته إلا أن جأر إلى الله تعالى بالدعاء ، شاكيا ضعفه ، وقلة حيلته ، طالبا منه ــ جلّت قدرته ــ أن ينتصر لدينه وأتباعه ، وأن يُنزل بأسه وعذابه بالمكذبين من قومه ، وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه (نوح) عليه السلام ، فانهمرت أمطار السماء ، وتفجرت الأرض عيونًا وينابيع ، والتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قدره الله وهو هلاكهم غرقًا .

وحدث الطوفان العظيم الذي أغرق الله تعالى به المكذبين من قوم نوح ، وأنجى نبيه نوحًا عليه السلام ومن آمن معه في السفينة التي حملتهم فوق الماء ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ، تكلؤها عين الله ، وتَحفُّ بها عنايته ، وتحفظها رعايته ، وما كان ذلك إلا انتصارًا لنبيّ الله (نوح) عليه السلام الذي كذبه قومه ، وكفروا بما جاءهم به ، وعقوبة لهؤلاء القوم الجاحدين المكذبين .

أما السفينة التي حملت (نوحا) عليه السلام ومن آمن معه ،

فقد تركت على جبل الجودي حيث استوت ، وبقيت فترة طويلة من الزمن حتى أدركها أول هذه الأمة ، وذلك لتكون آيةً شاهدة على نجاة المؤمنين ، وتذكرة وعبرة للظالمين المكذبين . فهل يعتبر بذلك المكذبون من قوم (محمد) صلى الله عليه وسلم ؟!! وهل يتأمل الكافرون من هذه الأمة كيف كان عذاب الله تعالى للكافرين بنوح ، وكيف كان إنذاره لهم بالعقوبة ؟!!

هذا ما جاء به القرآن من ذكر المكذبين من قوم (نوح) وما نزل بهم ، وما جاء به ذكر المؤمنين ونجاتهم ، وقد سهل الله لنا قراءته ويسّر علينا فهمه . فهل من معتبرٍ متعظٍ بما جاء فيه من العبر والذكر ؟!

* * * *

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

كذبت عاد : نبيها (هودًا) عليه السلام ، كما كذب قوم (نوح) عليه السلام نبيهم

فكيف كان عذابي ونُذُر : فانظروا عذابي لهم وعاقبة ما أنذرتهم .

إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا : شديدة البرد والصوت .

في يوم نحس مستمر : في يوم شرٍّ وشؤم ، استمر بنحسه عليهم ، وقد كانوا يتشاءمون به .

تنزع الناس : تقتلعهم ، ثم ترمي بهم على رؤوسهم ، فتدق رقابهم .

كأنهم أعجاز نخل منقعر : كأنهم أصول نخل انقلعت من مغارسها ، وسقطت على الأرض .

وفي عادٍ قوم هود آية وعبرة :

وكما كذب قوم (نوح) نوحًا عليه السلام ، فأخذهم الله تعالى بالطوفان . كذلك كذبت عادٌ قوم هودٍ (هودًا) عليه السلام ، متجاهلة مانزل بالمكذبين من قوم (نوح) عليه السلام ، غير عابئة بما أنذرهم به نبيهم (هودٌ) من نزول العذاب .

فلننظر كيف كان عذاب الله الذي أنذرهم به : لقد أرسل الله تعالى عليهم ريحًا عاصفة شديدة البرد ، شديدة الصوت ، في يوم نحس وشؤم ، استمر بشؤمه عليهم ورياحه الشديدة سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة ، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى : « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا »[1].

فكانت الرياح العاتية تقتلعهم من الحفر والكهوف التي اختبأوا فيها ، فترفعهم ، حتى يغيبوا عن الأبصار ، ثم تلقيهم على رؤوسهم ، فتدق رقابهم ، وتفصل رؤوسهم عن أجسامهم كأنهم أعجاز نخل اقتلعت من مغارسها وقطعت رؤوسها، فإذا خرجت أرواحهم من أجسامهم أصبحوا جثثًا هامدة لا حراك فيها ، كما أشار إلى ذلك بقوله سبحانه : « فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝ »[2] ... هكذا كان عذابهم الذي أنذرهم الله به ، فلم يأبهوا له ، أو يعبأوا به. لقد أخبر الله به المكذبين من هذه الأمة ، وذكره في القرآن الذي يسّره للذكر . فهل يتعظ بذلك المتعظون ؟ ويعتبر به المعتبرون ؟!!

---

(١) الحاقة / الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) الحاقة / الآيتان ٧ ، ٨ .

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ
ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

كذبت ثمود بالنذر — كذب قوم (صالح) ـ عليه السلام ـ صالحًا فيما جاءهم وأنذرهم .

فقالوا : أبشرًا منا واحدًا نتبعه — أبشرًا واحدًا من جنسنا نتّبعه ونحن الجمع الكثير ؟!

إنّا إذًا لفي ضلال وسعر: لو استجبنا له لكنا في خيبة وعناء وعذاب .
أألقي الذكر عليه من بيننا: أأنزل عليه الوحي ، وخُصّ بالنبوة دوننا ؟
بل هو كذاب أشر : بل هو كاذب مُتكبر متجبر .
سيعلمون غدًا مَنِ الكذاب الأشر : سيعلمون يوم القيامة من الكذاب الأشر، ثمود أم رسولنا صالح ؟! وهو تهديد ووعيد .
إنا مرسلو الناقة فتنة لهم: ابتلاءً واختبارًا .
فارتقبهم واصطبر : تبصّر ما هم صانعون بها ، ولا تعجل .
ونبئهم أن الماء قسمة بينهم : أخبرهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة ، يوم لهم ويوم لها .
كل شرب محتضر : كل نصيب منه لأحد الفريقين يحتضره صاحبه ومستحقه .
فنادوا صاحبهم : عاقر الناقة ، وحضوه على عقرها .
فتعاطى فعقر : فتناول السيف ، فقتلها .
إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة : أهلكناهم بصيحة واحدة ، صاح بها جبريل فيهم .
فكانوا كهشيم المحتظر : خمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات ، إذا وضعه صاحب الحظيرة في حظيرته .

وفي ثمود قوم صالح آية وعبرة :

وكذلك كان شأن ثمود ، قوم (صالح) عليه السلام ، فقد كذبوا نبيّهم صالحا فيما جاءهم به من البينات والنذر ، كما كذب الذين من قبلهم من قوم نوح وقوم هودٍ - عليهما السلام - وكانت حجة

قوم (صالح) في عدم الاستجابة لنبيهم أنه فردٌ واحد منهم ، وأنهم الجمع الكثير . فكيف يليق بهذا الجمع الكثير ، أن يتنازل عن كل ما يملك من معتقداته وأفكاره وعاداته وتقاليده ، ليتبع فردًا واحدًا من جنسه ؟! لقد كبر عليهم ذلك ، واعتبروه أمرًا غير معقول ولا مقبول بل إنهم صرحوا بأنهم لو فعلوا ذلك ، واستجابوا لنبيهم لكانوا إذن في خيبة وخسران وعناء وعذاب . بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك وقالوا : هل يمكن أن يختار الله تعالى واحدًا مثل صالح عليه السلام ــ دوننا جميعا ، لينزل عليه الوحي ، ويجعله نبيًا ؟! لقد صعب عليهم حقدًا وحسدًا أن يختصه الله تعالى بالنبوة من دونهم ، فلم يكن أمامهم إلا أن يرموه بتهمة الكذب والتكبر والتجبر ،ليسوغوا إعراضهم عنه ، وعدم استجابتهم له . في حين أنهم هم الذين كذبوه تكبُّرًا وترفُّعًا عن أن يستجيبوا لفرد واحد منهم . وإذا كانوا قد نَسوُا هذه الحقيقة أو تناسَوْها فسيعلمون يوم القيامة حين يقفون للحساب مَنِ الكذّابُ الأشر . وهذا تهديد ووعيد ، وأنهم هم المكذبون المتكبرون المتجبرون ، فليهيئوا أنفسهم للحساب والعقاب .

ثم إنهم إمعانًا في غيِّهم وضلالهم طالبوا نبيهم صالحًا ــ عليه السلام ــ أن يخرج لهم ناقة عظيمة من صخرة صماء ، لتكون آية على صدق نبوته ، فأخرج الله تعالى لهم الناقة طبقاً لما سألوا ، ولتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح ــ عليه السلام ــ فيما جاءهم به ، وأخبر الله تعالى (صالحًا) بأنه أرسل الناقة إليهم ابتلاءً واختبارًا ، وطلب إليه أن ينظر ما سيفعلون بها ، وأن يمهلهم ولا يعجل عليهم ، وأن يخبرهم أن الماء سيكون مقسما بينهم وبين الناقة ، فهم يشربون الماء يومًا ، وهي تشربه يومًا ، فإذا كان يوم الناقة حضرت لتأخذ

نصيبها ، ولم يحضر القوم . وإذا كان يوم نصيب القوم حضروا لأخذ نصيبهم ، ولم تحضر الناقة .

ويبدو أن الأمر قد شقّ عليهم ، ولم يستطيعوا أن يصبروا على ذلك ، فنادوا رجلًا شقيًّا منهم ، بل هو أشقاهم ، وأغروه بعقر الناقة وذبحها ، حضّوه على ذلك ، فأخذ السيف فقتلها ، فأنزل الله تعالى بهم عقوبته وعذابه الذي أنذرهم به ، وأرسل عليهم صيحة واحدة أهلكتهم فجعلتهم خامدين هامدين ، كما يهمد يبيس الزرع والنبات إذا وضعه صاحب الحظيرة في حظيرته .

هذا ما قصّ الله علينا من قصة ثمود في القرآن ، وتكذيبهم لنبيهم (صالح) - عليه السلام - وما فعل الله بهؤلاء المكذبين من العذاب . وإنه لأمر ميسَّر أن يقرأ الناس القرآن ، وأن يفهموه ، ويتعظوا به . ولكن هل يستجيب المكذبون من هذه الأمة لذلك ، فتكون لهم عبرة بالمكذبين السابقين ؟ وهل من مُدّكِر ؟

* * * *

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ
فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

إنا أرسلنا عليهم حاصبًا: ريحًا رمتهم بحجارة أهلكتهم .

إلا آل لوط نجيناهم بسَحَرٍ : خرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم .

ولقد أنذرهم بطشتنا : ولقد أنذرهم (لوط) قبل ذلك بأسنا وعذابنا .

فتماروا بالنذر : تحاجّوا وتجادلوا شاكّين فيما أُنذروا به .

ولقد راودوه عن ضيفه : راود قوم لوط لوطًا على ضيوفه من الملائكة طلبًا للفاحشة .

فطمسنا أعينهم : صيّرناها لا يُرى لها شق ، فلم يروا الملائكة .

فذوقوا عذابي ونذُر : تقريع بما نالهم من عذاب العمر .

ولقد صبّحهم بكرةً عذاب مستقر : نزل بهم عند الصبح عذاب لا انفكاك لهم منه .

وفي قوم (لوط) آية وعبرة :

وكما كذبت الأمم السابقة من قوم نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ فقد كذب قوم (لوط) ـ عليه السلام ـ بما جاءهم به نبيهم من البينات والنذر ، وأصرّوا على ما هم فيه من فِعْل الفواحش والمنكرات ، فحق عليهم غضب الله ، ونزل فيهم بأسه وعقابه ، فأرسل عليهم ريحًا شديدة عاصفة ، ذرت عليهم الرمال ، ورمتهم بالحصباء ، ورجمتهم بالحجارة ، وجعلت عالي بيوتهم سافلها ، وقلبت مدينتهم رأسًا على عقب ، ولم ينج منهم أحدٌ إلا (لوط) عليه السلام وابنتاه ، فقد خرجوا من آخر الليل قبيل الفجر ، قبل أن ينزل العذاب بقومهم . وهكذا تمضي سنة الله تعالى أبدًا في إنجاء المؤمنين الشاكرين ، وإهلاك المكذبين الكافرين . وقد كان بإمكان قوم (لوط) أن يدفعوا العذاب عن أنفسهم لو أنهم استجابوا لرسولهم ، واستمعوا لقوله وتحذيره ، وحملوا ما أنذرهم به من عذاب الله وبطشه محمل الجدّ ، وأخذوه مأخذ الصدق . ولكنهم شكّوا في ذلك وارتابوا ، وجادلوا وتمارَوْا ، وتمادَوْا في طغيانهم وإسرافهم ، وتطلّعوا إلى ضيف (لوط) عليه السلام من الملائكة الذين نزلوا عنده في صورة شباب مُرْدٍ حِسانٍ . وكانت امرأة (لوط) قد

أرسلت إليهم تخبرهم بضيف لوط ، فجاءوا يُهْرَعون إليه من كل مكان ، يراودونه عن ضيفه ، ويطلبون أن يمكنهم منهم ؛ ليفعلوا بهم الفاحشة ، فأغلق (لوط) -عليه السلام- دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، ولوط ـــ عليه السلام ـــ يدافعهم ويمانعهم دون ضيفه . فلما اشتدت الحال ، وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم (جبريل) عليه السلام ، فضرب أعينهم فانطمست فرجعوا على أدبارهم عميانًا ، يتحسسون الحيطان ، ويتوعدون (لوطًا) عليه السلام ، حتى إذا كان الصباح نزل بهم بأس الله الذي لا يُدْفَعُ ، واستقر عندهم عذابه الذي لا يُمْنَعُ ، وحاق بهم ما كانوا يكذبون . فليذوقوا العذاب الذي أنذرهم (لوط) . لقد استهانوا واستهتروا بالإنذار ، فلينظروا كيف تكون عاقبة الاستهتار . هذه قصة المكذبين من قوم (لوط) كما قصها القرآن الميسَّر للذِّكْر ؛ ليعلم المؤمنون أن العاقبة لهم ، وليعتبر المكذبون بما نزل في أسلافهم ، فتكون لهم عظةً وعبرة ، فلا يسلكوا سبيلهم ، ولا يقتفوا آثارهم . وإلَّا فإن مصير المكذبين اللاحقين لن يكون أحسن حالًا من مصير المكذبين السابقين . فهل يعتبر المكذبون من هذه الأمة ؟! وهل منهم مِنْ مُدَّكِر ؟!!

« وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ
فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم
بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾
سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ
وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ
وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ
إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ
وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

ولقد جاء آل فرعون النذر: أنذرناهم عقابنا ، إذ كفروا بما جاءهم به (موسى) عليه السلام .

كذبوا بآياتنا كلها : كذبوا بكل ما أيدنا به (موسى) من المعجزات الدّالة على صدقه .

فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر : فأهلكناهم بقوة واقتدار .

أكفاركم خير من أولئكم؟ : أكفاركم يا معشر قريش خير من أولئكم الأقوام الذين عاقبتهم حتى تنجوا من عذابي ؟!

أم لكم براءة في الزبر : أم لكم براءة من عقاب الله فيما أنزل من الكتب ؟!

أم يقولون نحن جميع منتصر : أم يدعون أنهم منصورون بعددهم وَعُدّتهم وقُوّتهم ؟!

سيُهزم الجمع ويولون الدبر : سيتفرق شملهم ويُغْلَبون ، وقد كان ذلك يوم بدر .

بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر : بل القيامة موعدهم حيث العذاب الأكبر ، وهو أشد عليهم من العذاب الأدنى يوم بدر .

ذوقوا مس سقر : قاسوا حرّ جهنم ، وشدة عذابها .

إنا كل شيء خلقناه بقدر : بمقدار محدد ، وقضاء محتوم .

وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر : نأمر بالشيء مرةً واحدةً (كن فيكون) لا يتأخر طرفة عين .

ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر : ولقد عذّبنا أمثالكم من الأمم السابقة، فهل من متعظ ؟!

وكل شيء فعلوه في الزبر : مكتوب عليهم في الكتب التي في أيدي الملائكة .

وكل صغير وكبير مستطر : وكل صغير وكبير من أعمالهم مكتوب ومحفوظ .

في مقعدِ صدقٍ : في مجلس حَقٍّ ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة .

وفي آل فرعون آية وعبرة :

لقد أرسل الله تعالى نبيه (موسى) عليه السلام رسولاً إلى آل فرعون ، وإلى بني إسرائيل ، وشَدَّ أَزْرَه بأخيه (هارون) عليه السلام ، وأيدهما بالآيات البينات ، والمعجزات الواضحات ، كالعصا التي تنقلب إلى حية ، واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء ، وسِنين القحط التي أصابتهم ، وأمثال ذلك من الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدَّم . فلم يكن من فرعون وآله إلا أن كذّبوا بما جاءهم به موسى وهارون من الآيات ، وأعرضوا عن الاستجابة لهما ، وأصرّوا على ما هم فيه من كفر وانحراف ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأغرقهم في البحر ، وجعلهم طعامًا للأسماك والحيتان . فليعتَبِر بمصير آل فرعون من يعتبر ، وليتذكّروا قدرة الله تعالى التي لا تُغالَب ، واقتداره الذي لا يُمانَعُ ولا يُنازَعُ .

التفاتة إلى قوم محمد (صلى الله عليه وسلم) :

بعد هذه الجولة الطويلة في مواقف الأمم السابقة من أنبيائها ، وتكذيبها بما جاءت به ، وأَخْذِ الله لأولئك الكافرين المكذبين ، يلتفت الحق - جلّ وعلا - بالخطاب إلى قوم الرسول (محمد) - صلى الله عليه وسلم - يسألهم على سبيل الاستنكار والتقريع : هل تظنون أيها القوم أن كفاركم خير من كفار الأمم السابقة ، فهم في

مَنْجاةٍ من العذاب الذي أصاب السابقين ؟! أم تظنون أيها القوم أن الله تعالى كتب لكم براءة من العذاب فيما أنزل من الكتب؟ ! أم أنكم معتدّون بقوتكم وجمعكم ، وكثرة عددكم وعُدَّتكم ، وأنكم بذلك تنتصرون ؟! إذا كنتم تظنون ذلك ، فاعلموا أن جمعكم سيُهزَمُ ، وأن قوتكم ستذهب ، وأن عُدَّتكم ستتبدّد . وقد حصل لهم كل هذا يوم (بدر) فقد هُزِموا شر هزيمة ، فقُتِل منهم مَنْ قُتِل ، وأُسِرَ منهم من أُسِرَ ، وجُرِحَ منهم من جُرح ، ولاذ البقية بالفرار ، لا يلوون على شيء ، وغنم المسلمون منهم ماغنموا . وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يوم (بدر) يردد هذه الآية : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » فسمعها عمر — رضي الله عنه — فقال : ما كنت أعلم أيَّ جَمْعٍ سيُهزمُ حتى كان يوم بدر .

وما أصابهم يوم بدر ، إنما هو العذاب الأدنى . أما العذاب الأكبر ، فإنه بانتظارهم . إنه عذاب القيامة الذي أزفت ساعته ، واقتربت بدايته ، وظهرت آيته بانشقاق القمر . إنه أشد وأنكى ، وأذل وأخزى ، بل إنه أدهى وأمَرُّ . لقد كانوا في الحياة الدنيا منغمسين في أخطائهم وانحرافاتهم ، غارقين في خيبتهم وخُسْرانهم . واليوم في حياتهم الآخرة يُكَبُّون في النار على وجوههم ، تسحبهم ملائكة العذاب ، وتضيف إلى تعذيب أجسامهم تعذيب نفوسهم ، بما تُسْمِعُهم من كلمات التقريع والتوبيخ « ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » ، فليس عذاب النار بعيداً عنهم كما يتخيلون ، وليس من مصلحتهم أن يستعجلوه ، وإن استعجلوه فلن يأتي إلا في وقته المحدَّد ، فإن الله تعالى خلق كل شيء ، بقدر . فإذا جاء أجله فأمْرُهُ يكون كلمح البصر . فلا يتأخر وجوده عن الأمر الإلهي . ولكن

عليهم دائمًا أن يتذكروا أن العذاب الأدنى في الحياة الدنيا هو مقدمة ذلك العذاب الأكبر يوم القيامة ، وأن هذا العذاب الأدنى قد نزل بأمثالهم وأشباههم من مكذبي الأمم السابقة ، وهو مُوشِكٌ على النزول بهم إن لم يعتبروا بأشياعهم ممن سلف . فهل من معتبر أو مُدَّكر ؟!

كذلك عليهم أن يعلموا أن تأخير الجزاء إلى وقته المحدد له عند الله ، وعدم معاجلتهم به كما يطلبون لا يعني نسيان أعمالهم ، وضياع ما قدَّمتْهُ أيديهم ، فإن كل ما صدر عنهم من صغار الذنوب وكبارها معلومٌ عند الله تعالى ، مجموع عليهم ، مسطور في صحائف الأعمال ، محفوظ في كتب خاصَّة .

ولعل مما يزيد في عذاب المكذبين ، ويضاعف من آلامهم — وهم يتقلَّبون في نار جهنم - أن يعلموا ما أعده الله تعالى للمؤمنين الصادقين من جنات وأنهار ، يتفيؤون ظلالها ، ويتقلبون في نعيمها ، ويَسْتَرْوِحون نسيمها ، ويأكلون من ثمارها ، ويشربون من معينها ، وقد نالوا رضوان الله تعالى فاستحقوا أن يسكنهم دار المُقامَةِ ، وأن يُغْدِقَ عليهم عطاياه ، وأن يشملهم بفضله وإحسانه ، فقرت أعينهم بما شاهدوا ، وطابت نفوسهم لما وجدوا . ولا عجب في ذلك فإنهم في ضيافة الملك العظيم الخلاق ، القادر المقتدر على فعل ما يشاء . فأين مصير هؤلاء الأبرار من مصير أولئك الفُجّار ؟! وشتّانَ شتّان بين مصير أهل الجنة ومصير أهل النار !!

سورة الرحمن

تمهيد :

١ ـ جاءت سورة (الرحمن) امتداداً لسورة (القمر) التي قبلها ، فحين ينتهي القارئ من تلاوة سورة (القمر) يقول الله تعالى : « إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ » قد يستمر في التلاوة ويقرأ : (الرحمن) . وهو بدء سورة (الرحمن) . . فهناك الربط الوثيق .

٢ ـ أو لعل بدء سورة (الرحمن) جاء كالإجابة عن سؤال يقول : من المليك المقتدر ؟ .. فأجيب : إنه « الرحمن » الفياض بالنعم في الدنيا والآخرة .

٣ ـ جاء استهلال السورة بما ينبئ عن أن الله الرحمن هو صاحب الآلاء الساطعة ، وأول هذه النعم ، وأجلها قدرا (القرآن الكريم) أصل النعم الدنيوية التي امتن الله تعالى بها على البشرية .

٤ ـ وكما بدأت بهذا الاسم العظيم « الرحمن » ختمت بما يناسبه جل وعلا من الإجلال والإكبار بقوله تعالى : « تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » .

٥ ـ وكان خلق الإنسان ـ وما يشاهده في الكون من الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة ، والأرض الموضوعة ، وما فيها من فواكه ، وزروع ـ من نعم الله تعالى وآلائه العظيمة .

٦ ـ وللسورة الكريمة حديث في بعض آياتها عن قدرة الله في تسيير السفن ، وهي تجري بحملها الثقيل على الماء لا يحفظها ولا يرعاها إلا الله جلت قدرته .

٧ ــ وتعلن السورة أن هذا الوجود كله إلى فناء ، ولا يبقى إلا الحي القيوم واهب كل هذه النعم .

٨ ــ ولأهوال يوم القيامة في السورة مكان ، نعرف بعده ثواب الذين يخشون ربهم ويراقبونه والذين يعملون الصالحات ، وفي الجانب الآخر نتعرف حال المجرمين وما يلاقونه من العذاب الأليم.

٩ ـ وفي صورة مبشرة نرى أهل النعيم من المتقين ، وكيف تجلى عليهم ربهم بمظاهر النعيم المقيم.

١٠ ــ ولقد تكررت في السورة الآية الكريمة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ » إحدى وثلاثين مرة .. والتكرار للإشهاد والتأكيد ، ولكثرة النعم واختلافها وتعددها ، ولطرد الغفلة ؛ ليُقبِل الإنس والجن على واهب النعم الحنان المنان .

• كما تدل هذه الآية الكريمة على أن الجن مخاطب بالقرآن الكريم كالإنس تماما ، ويؤيده قول الله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ »(١) .

• وتدل أيضا على أن رسالة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عامة للإنس والجن على السواء ، بخلاف غيره من الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ .

١١ ــ ولما نزلت سورة (الرحمن) كان المسلمون يقرؤون القرآن سرا ، ولكن (عبد الله بن مسعود) تجرأ ، وتلاها جهرا بجوار الكعبة ، وكانت قريش في منتدياتها تسمع ، وهبّوا إلى القارئ المؤمن ، وأوسعوه ضربا ، حتى سال منه الدم .

---

(١) سورة الجن/الآيتان : ١ ، ٢ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

الرحمن : اسم من أسماء الله تعالى خاص به ، لم يسمَّ به غيره .

خلق الإنسان : أي جنس الإنسان ، أو آدم عليه السلام .

علمه البيان : علمه أن يفصح عما يريد ، ويفهم بيان غيره ، مهما تتعدد وسائل البيان والنطق .

بحسبان : بحساب دقيق يُعرف في علم الفلك بالمنازل والأبراج .

والنجم والشجر يسجدان : المراد نجوم السماء ، أو ما لا ساق له من النبات ، والشجر ما كان له ساق ، وهما منقادان لإرادة الرحمن في طواعية الساجدين .

ووضع الميزان : شرع الميزان والعدل إحقاقا للحق ، وإنصافا للخلق .

ألا تطغوا في الميزان : حتى لا تجوروا ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تتجاوزوا حد الشرع .

وأقيموا الوزن بالقسط : قوِّموا ما تزنون بالعدل بلا طغيان ولا خسران .

ولا تخسروا الميزان : لا تنقصوا الموزون .

والأرض وضعها للأنام : هيأها ليعيش عليها الخلق .

والنخل ذات الأكمام : والنخل التي تطلع فيها أوعية الطلع وأغطية الثمر .

والحب ذو العصف : الحبوب مثل القمح والشعير ، وما يتخلف عنهما من تبن هو غذاء للحيوان .

والريحـان : كل نبات طيب الرائحة ، مثل الورود والرياحين .

آلاء : جمع . ألا ، إلى من : مفردات القرآن . للراغب الأصفهاني

من صلصـال : من طين يابس يسمع له صوت إذا نُقِر عليه .

الجـان : أبا الجن وهو إبليس ، أو جنس الجن .

من مارج من نار : من اللهب المتحرك الصافي من الدخان .

رب المشرقين : مشرق الشتاء ومشرق الصيف للشمس والقمر .

رب المغربين : مغرب الشتاء ومغرب الصيف للشمس والقمر .

رحمة الله بالإنسان في تعليمه القرآن والبيان :

الله الرحمن الفياض بالنعم ، يسَّر القرآن للحفظ والفهم ، وجعله منهج السماء للأرض ، وأعلى الكتب السماوية فضلا وقدرا ، وأعظم وحي الله تعالى إلى أعظم الأنبياء ، فكان بذلك . . نعمة عظمى . . تقدمت في الذكر كل النعم ، التي عددها الله تعالى ممتنًا بها على عباده في هذه السورة الكريمة ، ولعل في تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان ما يوحي بأن هذا الكتاب العظيم هو وحده الذي يحقق إنسانية الإنسان ، واستحقاقه التكريم على سائر المخلوقات .

ولقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم فاهما ناطقا ، مهيأ لأن يتجاوب مع الآخرين ، قادرا على الإبانة عما في نفسه ، وعلى إدراك ما يقوله غيره ، والتعبير عما يريد من رغبات ومقاصد ، فامتاز بذلك عن سائر الحيوان ، وأصبح بتلك النعمة أفضل المخلوقات

وأكرمها وأصلحها لعمارة الكون مع أفراد جنسه الذين يفهمهم ويفهمونه ؛ وبذلك تنتظم لهم أمور الحياة ، وتتحقق بهم حضارة الإنسان ، ومنها : الاعتراف بفضل الرحمن .

فكيف ينطق الإنسان ؟ وكيف يبين عن نفسه في المواقف المختلفة ؟ ومن أنطقه وعلمه وهو الخارج من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شيء ؟ ذاك هو الله الرحمن .

رحمة الله تعالى بالإنسان في تسخير الشمس والقمر والنبات :

والشمس والقمر خلقهما الله تعالى بحساب دقيق في حجمهما وموقعهما وآثارهما ، بحيث لو تغير شيء من ذلك لتغير نظام الحياة ، فهما يسيران بحساب ونظام دقيقين في أبراجهما ومنازلهما لمصالح العباد ، « لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[1] وتعاقبهما يصاحب تعاقب الليل والنهار ، والفصول الأربعة ، ويجريان في ذلك بحساب معلوم لا يتخلف ، ولا يختل مدار أحدهما ما دامت الحياة باقية ، « لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ »[2] ، فللشمس أثرها العظيم في حركة الحياة والأحياء وبقائهما ، وكذلك للقمر تأثير كبير في حركتي المد والجزر وحركة الحياة والأحياء .

فسبحان من خلقهما ، وأنعم بهما على خلقه . إنه الرحمن المستحق للطاعة والعبادة والشكر .

---

(١) الإسراء/آية ١٢ .
(٢) يس/آية ٤٠ .

ولقد أخبرنا الله تعالى بأن الكون بسمائه وأرضه منقاد لعزته ، مستجيب لإرادته « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ » (١) ، وفي سورة الرحمن يخبرنا المولى — عز وجل — بقوله : « وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » ..

ولقد فسر بعضهم النجم بالنبات الذي لا يستوي على سوق ، والشجر بماله ساق ، وفسره بعضهم بالنجم الذي في السماء ، وكلاهما يشير إلى ارتباط الخلق بالخالق في العبودية والطاعة « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (٢) ، وإلى استجابة النبات لمشيئة الله وقدرته ، والانقياد لأمره تعالى في إخراج الثمار ، وسد حاجة الإنسان والحيوان إلى الغذاء .

السماء المرفوعة والميزان الموضوع :

ولقد رفع الله تعالى السماء بغير عمد ، ترونها محكمة البناء ، رفيعة القدر ، وعلى الإنسان أن يتوجه بنظره إلى أعلى « وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ » ليرى الكم الهائل من النجوم والكواكب في مجموعاتها الهائلة وهي تجري في الكون بسرعات مخيفة ، ومع ذلك لا تلتقي ولا تتصادم ؛ لأنها تسير بحسبان من الرحمن . !!

---

(١) سورة فصلت/ آية ١١ .
(٢) الإسراء/ آية ٤٤ .
(٣) سورة الغاشية – الآية ١٨ .

إن الذي رفع السماء بلا عمد ، ووضع القوانين التي تحفظ بنيانها وتناسقها وجمالها ، هو الرحمن الذي رفع الحق على الباطل ، ووضع ميزان الحق والعدل ضمن المنهج الإلهي في القرآن الكريم ، ليرتبط العدل بين الناس بشرع الله تعالى ، ووحي الله ، الذي نزل من السماء ، ولتستقيم أحوال الخلق في الأرض كما استقامت أحوال السماء ، وحتى لا يطغى بعضهم على بعض بنقص من حقه أو زيادة عليه ، فحين يطمئن كل مخلوق على حقه ، يندفع إلى أداء واجبه في الإعمار والإصلاح ، وتصحو الضمائر ، فلا ظلم ، ولا نقص في الكيل والميزان ، بل عدل وعدالة ، وأمن وأمان ، في الأقوال والأفعال والأحكام .

فمن رحمة الله تعالى بخلقه أن حرم عليهم الجور والظلم ، وأمرهم بالإنصاف والعدل ، وإقامة الوزن بالقسط ، ونهاهم عن التطفيف ، وبخس الناس أشياءهم ، وتلك نعمة جليلة يمتن بها الرحمن على خلقه ؛ لعظيم أثرها في تحقيق السعادة لبني الإنسان — ما أشقى أمة يغيب العدل عن ربوعها .!!

تسخير الأرض للإنسان :

لو تأمل الإنسان أدنى تأمل في تلك الأرض التي يحيا عليها لأدرك من دلائل القدرة وآثار الرحمة ما هو كفيل بإخضاع جبهته إلى الأرض في سجدة شكر ضارعة ، فقد بسط الله تعالى الأرض وجعلها مسخرة مهيأة ذلولا ؛ لينعم الإنسان وغيره بالعيش عليها ، فأرسى فيها الجبال ؛ لئلا تميد أو تتحرك ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأمدها بالماء وهو سر الحياة ، وحفظ توازنها على الرغم من دورانها المذهل بسرعتها المخيفة حول نفسها وحول الشمس .

ومع وضوح هذه النعمة في حياة الأنام ينساها الغافلون ، فلا يُهرعون إلى الله إلا إذا ثار بركان ، أو دمر العمران زلزال . ماذا على الإنسان لو تفكر في طعامه وطعام حيواناته ؟ كيف وضع الله في الأرض خاصية الإنبات ؛ تمدنا بالأقوات التي منها الفاكهة ذات الطعوم والأشكال والروائح المختلفة ، ومنها ما تجود به النخل ذات الأكمام (وهي أكياس الطلع وأوعية الثمر) من غذاء شهي ، ورُطب جنيّ يمكن أن يعيش عليه الإنسان طوال حياته . ومنها أنواع الحب ذي العصف كالقمح والشعير والأرز والذرة ، تلك التي يقتات بها الإنسان كما تقتات بهائمه بما يتخلف عنها من التبن الناتج من ورقها وسوقها . ومنها ما هو للزينة والمتعة وشرح الصدور ، وهي النباتات ذات الرائحة الذكية كالأزهار والرياحين ، إنها ألوان من نبات شتى : منه ما يصلح طعاما للإنسان ، ومنه ما يكون طعاما للحيوانات ، ومنه ما فيه رَوْح للناس وجمال ، فسبحان « ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ » (١) .

بأي النعم يكذب الإنس والجن ؟ :

وبعد تعداد هذه النعم على الخلق من الإنس والجن ، يوجه الله إليهما سؤالا ؛ للإشهاد عليهما ، وحثهما على الاعتراف والإقرار بالنعم التي لا يجحدها إلا كل كفار أثيم « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ » لقد ذُكرت هذه الآية الكريمة إحدى وثلاثين مرة ، والاستفهام فيها للتقرير ، لما روى الحاكم عن جابر قال : قرأ علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سورة الرحمن حتى ختمها ،

---

(١) السجدة/آية ٧ .

ثم قال : « مالي أراكم سكوتا ؟ للجنُّ كانوا أحسن منكم ردًا ، ما قرأت هذه الآية من مرة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد »(١) .

وهل يملك إنس أو جن أن يكذِّب بنعم الله تعالى عند الإشهاد ؟!!

خلق الجن والإنس والمشرق والمغرب :

وفي معرض دلائل قدرة الله تعالى يأتي خلق نبينا آدم من طين يابس ، يُسمع له صلصلة وصوت إذا نُقِر عليه ، كالفخار الذي تحول من الطين بعد أن سُوِّي بالنار ، وكذلك خلق الله تعالى الجن من لهب متحرك صاف من الدخان . إلا أنها القدرة المطلقة التي لا تعجز عن شيء ، فهذا الإنسان من طين ، وهذا الجان من نار ، وهذا الملَك من نور . !!

فبأي نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ألا تدركان نعمة الخلق والإيجاد ؟ ألا تريان القدرة في أنفسكما ؟!!

إن الله الذي خلق فسوى ، هو رب مشرقي الشمس صيفا وشتاء ، ومغربيهما كذلك ، أو هو رب مشرقي الشمس والقمر ورب مغربيهما . ولا شك في أن الشروق والغروب ، واختلاف المطالع من آيات القدرة ، كما أنه من آيات الرحمة بالخلق ؛ فلولا الشروق والغروب ما كان ليل ولا نهار ، ولولا الشمس والقمر ما بقيت أسباب الحياة .

أفبعد ذلك .. تكذبان — يا معشر الإنس والجن — بنعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى ؟!!

---

(١) تفسير الجلالين .. وقد أخرجه الترمذي وصححه الحاكم من رواية ابن عمر .

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ
فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

مرج البحرين : أطلق البحرين : العذب والملح ، وأرسلهما .

يلتقيان : يتجاوران ، أو يلتقي طرفاهما .

بينهما برزخ : يفصل بينهما حاجز من صنع الله وقدرته .

لا يبغيان : لا يطغى أحدهما على الآخر ، فيختلط به .

اللؤلؤ والمرجان : اللؤلؤ يُستخرجُ من البحار ، والمرجان من الأحجار الكريمة أحمر اللون .

الجوار المنشآت : السفن الجارية في البحر المرفوعة الشراع .
كالأعـلام : كالجبال الشاهقة أو القصور العالية .
مَنْ عليها : من على الأرض .
فانٍ : هالك .
وجه ربك : ذات الله جل وعلا .
ذو الجلال والإكرام : صاحب العظمة والكبرياء ، والإكرام عن كل ما لا يليق به تعالى .

نعم الله تعالى على الإنسان في البحار والأنهار :

ثم ذكر الله تعالى أنه مرج البحرين العذب والملح ، وأرسلهما يجريان كُلٌّ في طريقه ومساره ، هذا النهر عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا البحر ملح أجاج . وبقدرته تعالى جعل الأنهار تصب في البحار ؛ لأن مستوى مياهها أعلى من مستوى مياه البحار ، وعند المصب حيث يلتقيان يجعل حاجزا من صنعه وقدرته ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، فلا مياه الأنهار تغير ملوحة البحار ، ولا مياه البحار تطغى على الأنهار فتغير عذوبتها ، وهذا كله لصالح الحياة والأحياء ، ولمنفعة الناس .

فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ! ! أفبغير قدرته تعالى يتكون اللؤلؤ والمرجان اللذان تنتفعون بهما بوصفها مصدراً للتجارة والزرق ، وتتخذون منهما حلية تلبسونها؟

وكما أخرج لكم من التراب الحَبَّ والفاكهة والريحان أخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان ، بعد أن هيأ لهما البيئة الصالحة لتكوينهما عند ملتقى الأنهار والبحار .

ومن عظيم نعمه وواسع رحمته أن جعل ماء البحرين ـ على الرغم من سيولته وميوعته ـــ قادرا على حمل السفن العظيمة الجاريات المشرعات ، وكأنها الجبال الشاهقة تجري على الماء في يسر وسهولة ، وهي محملة بالناس والأرزاق والتجارة ، تنتقل من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم ، ماجرت على الماء بصنع بشر ، وإنما ذلك له وحده سبحانه ، يجريها بقدرته ، ويحوطها وسط الأمواج برحمته ، فسبحان الله (له الملك وله الفلك) .

فبأي نعمة من نعم الله تكذبان ؟!

كل شيء هالك إلا وجهه :

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى التذكير بتلك الحقيقة الثابتة الأكيدة ، وهي أن كل ما خلق الله تعالى في الدنيا زائل وهالك ، وإلى فناء ، ويبقى الله الواحد الأحد صاحب العظمة والسلطان والكبرياء ، والإكرام عن كل ما لا يليق به وبجماله وجلاله . وهذه الحقيقة تسوى بين الخلائق بالموت وترغب في النعيم الدائم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فلا بد من الرحيل والمصير إلى دار الخلود .

فهل يتذكر الجن والإنس هذه النعمة الجليلة ؟ وهي أن الكون المتغير الذي سيلحقه الفناء هو من خلق الله ، أنشأه بقدرته من العدم ، وكتب له البقاء إلى أجل مسمى عنده ، وهو سبحانه الحي الباقي الذي لا يزول .

فبأي نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ !!

« يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى
شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ
لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ
أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ
وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾

يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

يسأله من في السموات والأرض	: يحتاج إليه كل من في السموات والأرض من الخلائق .
كل يوم هو في شأن	: في كل لحظة يدبر شأنا من شؤون خلقه ، فيحيي ويميت ، ويغني ويفقر ، . . وهكذا .. بحسب ما قدره في الأزل .
سنفرغ لكم	: بعد أن أمهلناكم سنحاسبكم على جميع أعمالكم .
الثقلان	: الإنس والجن أثقلا الأرض أو أثقلتهما التكاليف
إن استطعتم	: إن قدرتم .
أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض	: أن تفلتوا وتخرجوا من جوانب السموات والأرض ومن ملك الله هربًا .
فانفذوا	: فاخترقوا واهربوا من عذابي إن قدرتم .
لا تنفذون إلا بسلطان	: لا تخرجون إلا بقوة وقهر وغلبة ، وأنتم لا تملكون ذلك .
يرسل عليكما شواظ من نار	: يرسل عليكما لهب النار الحامية يوم القيامة .
ونحاس	: نحاس مذاب تُشْوى به جلودهم وبطونهم .

فلا تنتصران : فلا يقدر بعضكما على نصرة بعض ، ولا يمنعكما من العذاب أحد .

فكانت وردة : فكانت كحمرة الوردة من لهيب النار .

كالدهان : كالجلد الأحمر ، أو الدهن السائل الصافي الذي يغلي .

يعرف المجرمون بسيماهم : يعرف الكافرون يوم القيامة بعلامات مميزة .. بسواد الوجه وزرقة العيون .

فيؤخذ بالنواصي والأقدام : تجذبهم الملائكة من شعور مقدم رؤوسهم ومن أرجلهم وترميهم في النار .

يطوفون بينها وبين حميم : يتنقلون بين جهنم وحميمها من الماء الحار المغلي يُسْقَوْن منه .

آن : شديد الحرارة .

كل من في السموات والأرض محتاج لله تعالى :

غير الله تعالى لا (يُسأل) ؛ (لأن) سؤال غيره مذلة وإهانة للسائل ، فهو - سبحانه - وحده الذي يستجيب للدعاء ، ويُقْصَد في قضاء الحاجات ، وسؤال غير الله تعالى سؤال المحتاج الفاني نظيره الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يدفع قدراً ، ولا يدبر أمراً ، لكن عطاء الله تعالى يسع الجميع ، فمن الذي يفرج الكرب ، ومن الذي يجيب المضطر إنه الله تعالى !! فالكل مفتقر إليه ، وهو وحده الغني عن خلقه ، وهو وحده المشغول بأمر هذا الخلق . فكل لحظة تمر يدبر فيها شؤون الأنام على وفق ما قدرها في الأزل ، وكل ساعة هو في شأن من شؤون عباده يصرّف كل ما يحتاجون إليه من أمور حياتهم ووجودهم وبقائهم ، ويتناول هذا التدبير كل الوجود ، بل

كل مخلوق على حِدَة ، لا يشغله في ذلك شأن عن شأن . فهو سبحانه يخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، « وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ »[1] لا يخفى عليه شيء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . وقد روى أبو الدرداء عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « كل يوم هو في شأن ، من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين .[2] » .

تهديد الثقلين ووعيدهما :

أراد الله — سبحانه وتعالى — أن ينبه الذين أنعم عليهم بكل هذه النعم . أنها لن تدوم ، وأن الاغترار بها ، ونسيان خالقها وواهبها من أعظم الذنوب وأقبحها ، وأنه سيحاسبهم حساباً دقيقاً ، وينظر في أمورهم وأعمالهم ، ولا يشغله سبحانه شيء حتى يفرغ منه ، وإنما يقرب الله ذلك إلى أذهان المخاطبين حين يتصورون أن جبار السماوات والأرض قد توفّر على التنكيل بهم ، وتجرد لمعاقبتهم ، والانتقام منهم جزاء كفرهم وتكذيبهم بنعم الله تعالى عليهم . وهذا التهديد – في حد ذاته – نعمة ، لأن الله تعالى يحذّر الإنس والجن من الخطر . . فبأي نعم الله تعالى تكذبان؟

---

(١) سورة الأنعام/آية ٥٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والطبراني والبزار وأبو يعلى .

أين المفر ؟ :

ثم بين الله تعالى سلطانه النافذ في خلقه ، وقدرته المهيمنة عليهم ، وأنهم في قبضته ، لا ملجأ ولا منجى لهم من الله تعالى إلا إليه ، فالأمر أمره ، والحكم حكمه ، فهو ينادي الجن والإنس بهذا النداء المخيف المزلزل مذكرا بقدرته وجبروته ، وأنهم رهن إرادته ، فأين المفر ؟! وكيف السبيل إلى الهرب من العقوبة ؟! « إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ » إن قدرتم على الهرب من ملكي ، ومن جوانب سمواتي وأرضي ، فاهربوا أيها العبيد الضعفاء المقهورون — لا يمكن الفرار إلا بسلطان وقوة وقهر وغلبة ، ولا سلطان إلا لله وحده يومئذ .

فأية أعصاب بعد هذا يمكن أن تتحمل هذا التهديد المدمر الآخذ بكل أقطار النفس؟ ألا إن من دلائل رحمة الله تعالى بعباده ، ولطفه بخلقه أن يحذرهم هذه العاقبة الأليمة التي لا قِبَل لهم باحتمالها « لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ »[1] فعليهم أن يخضعوا لمشيئة الله تعالى ، ويستجيبوا لأمره ، وينيبوا إليه من قبل أن يأتيهم العذاب ، فيقولوا : ياحسرتنا على ما فرطنا في جنب الله تعالى . . !!

فبأي نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الجن والإنس؟

التحذير من ملاحقة العذاب للعصاة :

إذا كنتم — معاشر الجن والإنس — لا تستطيعون الفرار من الموت ، ولا تملكون من القوة والسلطان ما يساعدكم على الخروج

---

(١) سورة غافر آية ١٦

والهرب من أقطار السموات والأرض حتى تنجوا من الحساب والعقاب ، ولو ذهبتم هاربين من العذاب لردتكم الزبانية إلى جهنم ، وأرسلت عليكم أينما ذهبتم شواظ جهنم ، ولهيبها (الشديد) وصبت فوق رؤوسكم النحاس المذاب ، فلا تجدون لكم ناصرا ، ولا تملكون نصرة بعضكم بعضا. « يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ »(١)

إذا كنتم ــ معاشر الجن والإنس ــ لا تستطيعون ذلك فاذكروا أن من نعم الله عليكم هذا التحذير والتخويف من تلك العاقبة ، ومما سيكون عليه مصيركم .. فبأي نعم الله تعالى تكذبان ؟

بدء المشاهد الأخروية :

حين يأذن الله تعالى بانقضاء الحياة الدنيا ، ومجيء الآخرة ، سيحدث أمر جلل ، وتغيير كوني هائل ، فإذا بالأرض قد زلزلت زلزالها ، وأخرجت أثقالها ، وسُيِّرت الجبال فكانت سرابا ، وانشقت السماء فكانت أبوابا، وصارت في حمرة الوردة ، أو الأديم الأحمر ، أو كأنها الزيت الصافي الذي يغلي من شدة الحرارة والذوبان والهول العظيم .. فهل يملك أحد عند ذلك أن ينطق بتكذيب أو نكران ؟!! فبأي نعم الله تعالى تكذبان ؟

---

(١) سورة عبس / الآيات : ٣٤ ــ ٣٧ .

يعرف المجرمون بسيماهم فيهانون :

في هذا اليوم الرهيب الذي تنشق فيه السماء ، لا يُسْأَلُ أحد من الإنس أو الجن عن ذنبه وجريمته ؛ فالمذنبون والمجرمون والكافرون يُعْرفون بعلامات تميزهم ، « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ »[1] . فوجوههم مسودة تعلوها الكآبة والحزن .

فتتلقاهم الملائكة وتجذبهم من أقدامهم ، وشعور رؤوسهم ، وتقذف بهم في النار بعنف ومهانة وإذلال ، وتقول لهم : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بوجودها أيها الكافرون المجرمون . هأنتم أولاء تشاهدونها الآن وتذوقون حرها ولهيبها ، وتتنقلون وتترددون بين عذابها الشديد ، والشراب من الحميم الذي تناهى حره ، فتُسْقَوْنَ منه ، فيقطع أمعاءكم ، ويصهر جلودكم . فاذكروا يا معشر الإنس والجن أن الله الرحمن قد حذركم من هذا المصير .. وهذه نعمة منه . سبحانه وتعالى يستحق عليها الشكر .

فبأي نعم الله تعالى تكذبان ؟

* * * *

---

(١) سورة عبس / الآيات : ٤٠ ــ ٤٢ .

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

ولمن خاف مقام ربه : وللعبد الذي خاف قيامه بين يدي ربه يوم القيامة للحساب فنهى النفس عن الهوى ، وعمل صالحا .

جنتان : إحداهما لأنه فعل الطاعات ، والثانية لأنه ترك المعاصي .

ذواتا أفنان : لها أغصان مورقة مثمرة ، غضة ندية .

من كل فاكهة زوجان : كل فاكهة منها نوعان : أحدهما معروف والآخر غريب ، أو رطب ويابس .

متكئين : متنعمين بالاتكاء زيادة في المتعة والراحة والرضا .

وجنى الجنتين دان : وثمر الجنتين قريب لكل من يرغب ، يناله دون عناء .

فيهن قاصرات الطرف : في تلك الجنان نساء عفيفات لا ينظرن إلا إلى أزواجهن ولا يبغين بهم بدلا .

لم يطمثهن : لم يتزوجهن أحد قبل أهل الجنة ، بل هن أبكار عذارى .

كأنهن الياقوت والمرجان : كأنهن في صفاء الياقوت ، وحمرة المرجان .

جزاء من خاف مقام ربه :

وبعد أن ذكر الله تعالى النعم الدنيوية ، ثم ذكر - سبحانه - الأهوال التي تنتظر المجرمين يوم القيامة ـــ ذكر النعم التي أعدها للمتقين ؛ لتتحرك النفوس المستعدة للهداية ، وليظهر الفرق الكبير بين جزاء المتقين وعقاب المجرمين - فوعد الذي يخشى مراقبة الله تعالى له ، فيقبل على الطاعة ، ويخاف الوقوف بين يديه للحساب ، فلا يقرب المعصية ، ويزداد بالأعمال الصالحة إيمانا على إيمانه ، وهدى على هداه - وعده الله تعالى بجنتين يتنقل بينهما ، ويتمتع بهما ، حتى لا

يسأم العيش في جنة واحدة ؛ ليدوم سروره ، وتمتد هناءته ، ويتضاعف سعده ؛ لأنه كف عن المعاصي ، وقام بالطاعات . بينما المجرمون يتنقلون بين جهنم المستعرة ، والجحيم المغلي الذي يصهر الأمعاء ـــ بمجرد مذاقه ـــ وما في بطونهم والجلود .

فما أعظم الفرق بين الجزاءين !!! وما أسعد الفائزين بالنعيم المقيم !!

فبأي نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الثقلين؟

وصف الجنتين :

يحسن أن ننقل هنا ما ذكره (الفخر الرازي) إذ يقول : « وقد ذكر تعالى الجنة ، والجنتين ، والجنات ، فقال : « إن المتقين في جنات » . وقال: «مثل الجنة التي وعد المتقون » . فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها صارت كجنة واحدة. ولسعتها ، وتنوع أشجارها ، وكثرة مساكنها كأنها جنات . ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان[1] » .

ويرى الأستاذ سيد قطب « أنهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة ، ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما ؛ لأن أصحاب الجنة فريقان كبيران : هما السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، ولكل منهما نعيم ،فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذي مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين في سورة

---

(١) التفسير الكبير ٢٩ / ١٢٥

الواقعة ـــ ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين ، ونلمح أنهما لفريق يلي ذلك الفريق ، وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين» (١) .

أما الجنتان فهما ذواتا أغصان مورقة ، غضة طرية ، مثمرة ، وارفة الظل . فبأي نعم الله تعالى تكذبان؟

وفي كل منهما عين دافقة ، غزيرة الماء ، تجري زلالا في جميع أنحاء الجنة جريا سهلا حيثما شاء صاحبها ، وفيهما كذلك من جميع أنواع الفواكه والثمار ، ومن كل فاكهة نوعان : نوع معروف ، ونوع غريب ، مما لم يخطر على قلب بشر ، ثم إنها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

« فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » ؟

وأما أهل الجنتين فهم في نعيم مقيم ، وأمان دائم ، مضطجعين على فرش وثيرة بطائنها من الحرير المخمل السميك ، فكيف تكون ظواهرها ؟ . ولما سئل ابن عباس : فما الظواهر ؟ قال : « إنما وصف لكم بطائنها ؛ لتهتدي إليه قلوبكم ـــ فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله تعالى» . ألا ما أسعد أهل النعيم !! وأعظم متعتهم !! إنهم في دار الكرامة والتكريم ، والترفيه والتنعيم . فأغصان الأشجار قد تدلت بثمارها ، وقرب جناها من يد القاطف ، بحيث يناله القائم والقاعد والمتكئ ، ولا يتعب في الحصول عليه . وهذا عكس الثمار في الدنيا التي لا تدرك إلا بمشقة وتعب .

فبأي نعم الله تعالى تكذبان؟

---

(١) في ظلال القرآن جـ٢٧/ص ١٢٦ الطبعة الخامسة .

وفي تلك الجنان التي أعدها الله تعالى للمقربين من عباده زوجات من الحور العين قاصرات الطرف عفيفات مصونات لا ينظرن إلى غير أزواجهن ، ولا يبغين بهم بديلا ، ولم يتزوجهن أحد قبل ذلك ، بل هن أبكار عذارى ، لم يمسسهن إنس قبل أزواجهن من أهل الجنة ، ولم يقربهن جان .

« فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » . ؟

إن هؤلاء الزوجات على جانب عظيم من النضارة والحسن والجمال ، كأنهن الياقوت صفاء ، والمرجان حمرة وبهاء .

فبأي نعم الله تعالى تكذبان؟ !

كل هذا الجزاء الحسن لمن خاف مقام ربه ، فأحسن العمل في الدنيا ، وبلغ درجة المحسنين ، فكان يعبد ربه كأنه يراه ، موقنًا بأنه إذا لم يستطع رؤية ربه ، فإن ربه هو الذي يراه ، وتلك هي مرتبة الإحسان . . فكان جزاؤه الإنعام والإحسان من الله تعالى . «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . ؟

فإحسان العمل قد استلزم إحسان الثواب .

فبأي نعم الله تعالى تكذبان؟ !

* * * *

« وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾
حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾
تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

ومن دونهما جنتان	: ومن دون الجنتين السابقتين هاتان الجنتان لأصحاب اليمين ، وهما أقل مرتبة من جنتي السابقين المقربين .
مدهامتان	: مخضرتان خضرة شديدة تميل إلى السواد من كثرة ما بهما من أعشاب ، وأشجار مورقة .
عينان نضاختان	: فوارتان تنضخان بالماء دون انقطاع ، ولكنهما لا يجريان ، والجري أكثر من النضخ .
فيهن خيرات حسان	: فيهن نساء صالحات ، خيّرات الأخلاق ، جميلات الوجوه .
حور مقصورات في الخيام	: في عيونهن حَوَر ، وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها ، وهن مستورات لا يخرجن من الخيام ، لكرامتهن وشرفهن .
رفرف خضر	: وسائد أو بسط أو فرش توضع على أسرة أهل الجنة .
وعبقري حسان	: الطنافس المخملية والأثواب الجميلة المنقوشة .
تبارك اسم ربك	: تعالى اسم الله الرحمن وتقدس، وكثر خيره وإحسانه .
ذي الجلال والاكرام	: ذي العظمة والإنعام والفضل التام .

جنتان أخريان لأهل اليمين :

وأعد الله تعالى لأصحاب اليمين جنتين قريبتين في الشبه من الجنتين السابقتين . فيهما أشجار اشتدت خضرتها حتى مالت إلى السواد ، لكثرة العشب ، يتنعم بها المؤمنون . فبأي نعم الله تعالى تكذبان ؟

وفي كل جنة منهما عين يفور منها الماء الزلال وتنضخه بغزارة ، ولكنها لا تصل إلى درجة العين الجارية . فالنضخ أقل من الجري . وفيهما فواكه مختلفة الطعوم والألوان ، وخص بالذكر النخل والرمان ؛ لأنهما غالب فاكهة العرب ، ولمزيد حسنهما ، وكثرة نفعهما ، فثمر النخل فاكهة وطعام ، وحب الرمان فاكهة ودواء ، ولعل الفرق يبدو واضحا بين منزلة المقربين ومنزلة أصحاب اليمين في أن جنتي المقربين خيرهما أعم وأشمل ، « فيهما من كل فاكهة زوجان » وأما أصحاب اليمين ففي جنتيهما تحديد لنوع من الفواكه مما يدل على أنهما أقل درجة .

وكل هذه النعم حريّة أن تجذب العباد إلى طاعة الله تعالى ، وألا يكذب بها إلا كل جاحد منكر ، فبأي نعم الله تعالى تكذبان؟

وفي رحاب هذا النعيم يأتنس المنعمون بزوجات خيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه ، لا يعلم إلا الله تعالى مدى جمالهن ، ويزيدهن جمالا حور عيونهن ، وهن مكرمات مستورات في الخيام كالدرر المصونة[1] ، هؤلاء الحور المقصورات في الخيام عذارى لم يتزوجهن

---

(١) وخيام الجنة من اللؤلؤ ، كما ورد في الحديث الشريف «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلا ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون» أخرجه البخاري .

أحد من قبل ، ولم يمسسهن إنس ولا جان قبل أزواجهن ، وهذه كلها نعم عظيمة .

فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذبان؟

إن هؤلاء المنعمين من الإنس والجن يتمتعون بهذه المتع وهم متكئون على فرش مرفوعة مزينة مزخرفة ، وعلى وسائد وطنافس في غاية الروعة تكون مثارًا للعجب ، تتجلى فيها عظمة النسج والصنعة والزخرفة .

فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذبان؟

ثم ختمت السورة بهذا التنزيه والتقديس لله المنعم العظيم الجليل صاحب العظمة والكبرياء ، الذي عمَّ خيره ، وتوالى على الخلائق بره ، وفاضت أنعامه ، وتفضل على المؤمنين بدار الرضوان والكرامة .

فذلكم الله ربكم الحق ذو الجلال والإكرام .

* * * *

سورة الواقعة

تمهيد :

تأتي سورة (الواقعة) بعد سورة (الرحمن) لما بينهما من ترابط كبير ، يكاد يجعل من إحداهما تكملة للأخرى ، ومن أبرز وجوه هذه الصلة :

١ ـ افتتاح سورة (الواقعة) ، وسورة (الرحمن) بما يوحي بموضوع كل منهما .

٢ ـ ذكر ـ بعد بدء سورة (الرحمن) ـ نعمة كبرى على الإنس والجن ، وهي القرآن الكريم ، وتؤكد ذلك سورة (الواقعة) بالقسم بمواقع النجوم على أنه قرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، فقد رفع الله قدره ، وصانه وحفظه من الشياطين ، ولم يمسسه إلا المطهرون من الملائكة ، كما تبين السورة موقف المشركين من القرآن الكريم .

٣ ـ وتذكر سورة (الرحمن) أن الكواكب والنجوم تسير بحساب دقيق ، وتنقاد لأمر الله ومشيئته ، ويأتي في سورة (الواقعة) قسم بمواقع هذه النجوم .

٤ ـ وتعدد سورة (الرحمن) بعض مظاهر يوم القيامة ، وتشاركها سورة (الواقعة) في هذا الشأن ، بل إنها إذا وقعت فستقطع كل شك ، وتبطل كل زعم ، ولا تستطيع نفس تكذيب وقوعها .

٥ ـ وتتحدث سورة (الرحمن) عن تدبير الله تعالى للوجود بكل ما يحتاجه ، بينما تستعرض سورة (الواقعة) في بعض آياتها تدبير

أمر الحرث والنسل وحاجتهما إلى الماء العذب ، ولو شاء لجعله الله تعالى ملحا أجاجا ، وكذلك نشأة النار من الشجر .

٦ ــ وفي سورة (الرحمن) حقيقة فناء كل مخلوق ، وتأتي سورة (الواقعة) لتوضح المشهد المؤثر لاحتضار الإنسان قبل الموت ، وهذا حق ويقين ، وتوضح كذلك طبقات الناس عند الموت ، وما أعد لهم من ثواب وعقاب .

٧- وتذكر سورة (الرحمن) جنتين جزاء لمن يتقي الله تعالى ويراقبه ، وجنتين قريبتين منهما لأصحاب اليمين ، وتسجل للمجرمين عذابا بشواظ من نار ، وشراب من حميم . بينما تفصل سورة (الواقعة) هذه الحقيقة في تقسيم الناس يوم القيامة إلى أزواج ثلاثة هم : المقربون ، وأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة .

٨ ــ وإذا كانت سورة (الرحمن) عروس القرآن كما يقال ، فإن سورة (الواقعة) هي الغنى لهذه العروس ؛ لتعيش ثرية في قلوب المؤمنين بدوام تلاوتها .

٩ ــ ما أروع السورتين !! وما أوضح لقاءهما في البيان والتبيين !! وما أصدقهما من كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

١٠ ــ وكما ختمت سورة (الرحمن) بما يليق بجلال الله تعالى وعظمته وكبريائه « تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ » ، فكذلك ختمت سورة (الواقعة) بتنزيهه سبحانه عما لا يليق بكماله وجلاله « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ
رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا
ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ
ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾

وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

إذا وقعت الواقعة	: إذا قامت القيامة ، وسميت واقعة لكثرة ما يقع فيها من الأهوال والشدائد .
ليس لوقعتها كاذبة	: لا كذب في وقوعها ، ولا مكذب لها من مؤمن أو كافر .
خافضة رافعة	: خافضة قدر العاصين ، رافعة شأن الطائعين ، والخافض والرافع هو الله تعالى .
رُجَّت الأرض رجًّا	: اضطربت وتحركت بشدة ، وزلزلت زلزالها العظيم ، وتهدم كل ما عليها .
بُسَّت الجبال	: صارت فتاتا كالدقيق المبسوس .
هباء منبثا	: غبارا متفرقا منتشرا ، وذرات عالقة في الهواء .

أزواجا ثلاثة : أصنافا ثلاثة : اثنين في الجنة ، وواحدا في النار ، وجعلهم أزواجا ، لأن في كل صنف منهم مستكثرا ومقصرا فصار زوجا أو لأن في كل صنف رجالا ونساء .

فأصحاب الميمنة : الذين يذهبون جهة اليمين إلى الجنة ، ويأخذون كتبهم باليمين .

وأصحاب المشأمة : الذين يذهبون جهة الشمال إلى النار، ويأخذون كتبهم بالشمال .

والسابقون السابقون أولئك المقربون : من سارعوا إلى الإيمان والطاعة ، والبر والمعروف ، وسبقوا غيرهم . والتكرار هنا ؛ ليفيد أن السابقين في الدنيا إلى الإيمان ، السابقين في الآخرة إلى الجنة هم المقربون من ربهم ، أصحاب الدرجات العالية .

ثلة من الأولين وقليل من الآخرين : السابقون جماعة كثيرة من الأمم السابقة ، وجماعة قليلة من أمة محمد ـــ صلى الله عليه وسلم .

سرر موضونة : سرر منسوجة مضفورة بالذهب مرصعة بالدرر والياقوت .

متقابلين : وجوه بعضهم مقابل بعض ، وهذا دليل على المحبة ومراعاة أدب الجلوس .

يطوف عليهم ولدان مخلدون	: يدور حولهم صبيان لخدمتهم ، يظلون في صورة الولدان ، لا يصيبهم الهرم .
بأكـواب	: بأقداح مستديرة الأفواه لا عروة لها .
وأباريـق	: الأباريق هي الأواني التي تبرق من شدة صفاء لونها ، ولها عروة ، ويغترف بها ، ويصب منها الشراب في الأكواب .
وكأس من معين	: الكأس اسم للإناء حين يكون به شراب ، فالكأس هنا مملوءة من عيون الخمر الجارية كالماء المعين .
لا يُصدَّعون عنها	: لا يمنعون منها ، ولا تتصدع رؤوسهم من شربها ، كما تتصدع من شرب خمر الدنيا .
ولا ينزفون	: لا يسكرون فتذهب عقولهم .
حور عين	: نساء جميلات من الحور الواسعات العيون ، ومفرد كلمة « عين » عيْناء .
كأمثال اللؤلؤ المكنون	: هن من نضارتهن وصفائهن وحسنهن كاللؤلؤ المصون المحفوظ في الأصداف .
لغـــوا	: كلاما باطلا لا خير فيه .
ولا تأثيما	: لا يتكلمون بما فيه إثم .

الواقعة وأهوالها وأصناف البشر يومئذ :

إذا قامت القيامة ، ووقعت الواقعة التي سميت بذلك لتحقق وقوعها ، كما أطلق عليها الحاقة والصاخة والطامة لعظم ما يقع فيها من الأهوال والشدائد ، ولا يوجد حينئذ من يكذب بوقوعها كما كان يفعل المكذبون في الدنيا ، وهل يستطيع أحد أن يكذب بها بعد أن يراها واقعا أمام عينيه ، ويرى أناسا قد انحطت أقدارهم بدخولهم النار ، وكانوا في الدنيا أعزة ، وآخرين ارتفع قدرهم وعلا شأنهم بدخولهم الجنة ولو كانوا في الدنيا أذلة ؟!!

حين تحل هذه الواقعة تضطرب الأرض وتمور ، وتزلزل زلزالها العظيم الذي يخرج من بطنها أثقالها ، ويهرم كل ما على ظهرها ، وتتفتت الجبال الراسيات ، وتتحول إلى ذرات كالدقيق الناعم ، تطير في الهواء غبارا منتشرا ، وهباء متطايرا كالذي نراه في أشعة الشمس الداخلة من النافذة .

وتكونون أيها الناس عند ذلك أصنافا ثلاثة على حسب أعمالكم في الحياة الدنيا ، صنفين في الجنة ، وصنفًا في النار . قال ابن عباس : إنها التي في قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ » (١) .

ـــ فأصحاب الميمنة الذين يذهبون جهة اليمين إلى الجنة ، ويأخذون

---

(١) سورة فاطر/الآية ٣٢ .

صحائف أعمالهم بأيديهم اليمنى ، ما أفخم منزلتهم ، وأحسن جزاءهم .!!

ـــ وأصحاب المشأمة الذين يذهبون جهة الشمال إلى النار ، ويأخذون صحائف أعمالهم بأيديهم الشمال . ما أشنع منزلتهم ، وأبأس حالهم ، وأفظع عقابهم .!!

ـــ والسابقون إلى الإيمان ، والعمل الصالح والطاعات .. السابقون إلى دخول الجنة ، هم المقربون عند الله ، الفائزون برضوانه ، المكرمون بجزيل الثواب ، وعظيم المنزلة في جنات النعيم .

هؤلاء السابقون يشكلون عدداً كثيراً من الأمم السابقة من لدن آدم ـــ عليه السلام ـــ إلى نبينا محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وعدداً قليلاً من هذه الأمة ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه .

ما أعده الله تعالى للسابقين :

وقد أعد الله تعالى للسابقين المقربين نعيماً يناسب قدرهم ، فهم يستريحون على سرر منسوجة بقضبان الذهب ، مرصعة بالدرر والياقوت ، لا يشغلهم شيء إلا النعيم ، فهم يتكئون على الأسرة شأن المترفين المنعمين ، ويجلسون متقابلين ، يُسر بعضهم برؤية بعض ، ويتبادلون أحاديث الود والمحبة في صفاء ، ويدور عليهم صبيان في بهاء ونضارة لخدمتهم ، لا يكبرون ولا يهرمون ، يطوفون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، فيها خمر لذة للشاربين ، تجري بها عيون الجنة ، لا يصيبهم صداع من شربها ، ولا تؤثر في وعيهم وعقولهم كما تفعل خمر الدنيا ، ولا يمنعون منها .

كما يطوفون عليهم بأصناف كثيرة من الفاكهة ، يختارون منها ما يشاءون ، وبلحم طير مما يشتهون ويُحبون . ولهم مع هذا النعيم نساء من الحور العين ، عيونهن جميلة واسعة ، وهن في النضارة والبهاء في صفاء اللؤلؤ المحفوظ في صدفه ، وهذا هو الجزاء على أعمالهم الطيبة ، والمكافأة على ما قدموا من خير في دار الفناء ، ثم إنهم يحيون في راحة نفس وهدوء بال ، لا يعكر صفو حياتهم فاحش قول ، ولا يسمعون في الجنة كلاما لا فائدة منه . وإنما يسمعون من الله سلاما ، ومن الملائكة سلاما ، ويحيي بعضهم بعضا بالسلام

« سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ » [1] .

* * * *

(١) سورة الرعد/آية ٢٤ .

« وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ
مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ
مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ
مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ
مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ
ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ

مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

أصحاب اليمين : أصحاب الميمنة واليمن والخير والسعادة .

سدر مخضود : شجر نبق مقطوع الشوك ، ثمره يليق بأهل الجنة .

طلح منضود : هو شجر الموز متراكم الثمر بعضه فوق بعض ، قد امتلأ بالحمل من أسفله إلى أعلاه .

وظل ممدود : ظل دائم لا يزول ، ولا تمتد إليه شمس .

ماء مسكوب : ماء مصبوب ، دائم الجريان ، لا انقطاع له .

فرش مرفوعة : أسرة مرفوعة بوفرة حشوها ، أو نساء مرتفعات القدر في الحسن والجمال .

إنا أنشأناهن : أوجدناهن أصلا لأهل الجنة ، وهن الحور العين . أو خلقناهن خلقا جديدا ، وهن زوجات الدنيا بعد بعثهن صغيرات السن شابات .

عُرُبًا : جمع عروب ، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها .

أترابًا : متساويات في السن والشباب .

ثلة من الأولين : جماعة كبيرة من الأمم الماضية .

وثلة من الآخرين : جماعة كبيرة من الآخرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأصحاب الشمال : أصحاب الشؤم والشقاء ، الآخذون كتبهم بشمائلهم .

سموم : ريح شديدة الحرارة تدخل في مسام الجسم .

حميم : ماء مغلي غاية في الحرارة .

ظل من يحموم : ظل من دخان جهنم شديد السواد .

ولا كريم : لا طيب ، ولا نافع ، ولا حسن المنظر .

مترفين : منعمين منغمسين في الملذات والشهوات .

يصرون على الحنث العظيم : يداومون على الذنب العظيم ، وهو الشرك .

ميقات يوم معلوم : موعد القيامة ، يوم الواقعة .

الضالون المكذبون : البعيدون عن الهدى ، والمكذبون بالبعث والحساب والتوحيد .

لآكلون من شجر من زقوم : آكلون من شجر في جهنم مر الثمر ، كريه المنظر والرائحة .

فشاربون عليه من الحميم : شاربون من ماء في غاية الحرارة .

فشاربون شرب الهيم : شاربون كالإبل العطاش التي تشرب ولا تروى لداء أصابها .

هذا نزلهم يوم الدين : هذا ما أعد لاستقبالهم وضيافتهم من جزاء يوم الحساب .

ما أعده الله تعالى من نعيم لأصحاب اليمين :

وأما أصحاب اليمين ، أصحاب الميمنة واليمن والخير ، أولئك السعداء الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم ، فما أعظم نعيمهم !! وأكرم ثوابهم !! إنهم في أحسن حال ، يتقلبون في أحضان النعيم ما بين أشجار مورقة من شجر النبق المخضود لا شوك فيه ، وبه ثماره الطيبة التي تليق بأهل الجنة ، وبين شجر الموز ، المتراكم الثمر المتراص بعضه فوق بعض ، وهم في الظل الظليل ، الممتد الدائم لا يفارقهم في الجنة أبدا ، والماء الزلال العذب يجري في الأنهار دافقًا لا يعرف الانقطاع . أما أشجار الفواكه فكثيرة متنوعة دائمة الثمر ، لا توقيت لعطائها ، فلا تنقطع عنهم ، ولا يمنعون من تناولها متى شاءوا ، وهم يجلسون على أسرة عالية بوفرة حشوها ، ومعهم نساؤهم الجميلات من الحور العين اللاتي أوجدهن الله تعالى أصلاً لأهل الجنة ، أو من نساء الدنيا اللاتي خلقهن الله تعالى خلقا جديدا صغيرات السن شابات جميلات ، فجعلهن أبكارًا عذارى ، متحببات لأزواجهن برقة الحديث والطبع ، وحسن المعاشرة والمؤانسة ، محبوسات على أزواجهن ، وهن أتراب في سن واحدة ، يتدفقن بالحيوية والشباب والنضارة والحسن والجمال .

وكل هذا النعيم أفاضه الله تعالى على أصحاب اليمين ، وهم ثُلّة وجماعة كبيرة من الأمم الماضية ، ومثلهم جماعة كبيرة من أمة محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـ تقبل الله أعمالهم ، وشملهم برضوانه .

الصنف الثالث أهل النار :

إنهم أهل الشؤم الذين يعطون صحائف أعمالهم بشمائلهم . ما أشنع جرمهم !! وأفظع مصيرهم !! وأشقى حالهم !! فبينما أهل اليمين في الظل الممدود ، والماء المسكوب ، إذ بهؤلاء في سموم وحميم ، فالريح من حولهم شديدة الحرارة ، تدخل في المسام ، وتشوي الوجوه والأبدان ، والماء حار من جهنم في غاية الحرارة يقطع الأمعاء ، والظل الذي يظلهم إنما هو دخان أسود ، يجعل كل ما يحيط بهم إلى سواد ، وهذا الظل اللافح لا يوجد فيه معنى الظل ولا طبيعته من البرودة والرَّوح والإنعاش ؛ لأنه من دخان نار جهنم ، قبيح المنظر ، لا خير فيه ، ولا متاع ولا كرامة .

أعمال أصحاب الشمال التي استحقوا بها العذاب :

لقد كانوا في الدنيا مترفين منعمين بما لا يحل لهم من المحرمات ، إذ كان كسبهم من حرام ، وتصرفاتهم فيها ظلم وعدوان ، وكانوا مولعين بارتكاب المعاصي والمآثم ، مجافين للطاعات ، مقبلين على الشهوات والملذات ، وكانوا مصرين على الشرك لا يرجعون عنه ، ولا يتوبون منه ، وهو أفظع الذنوب وأقبحها ، وينكرون البعث والحساب والجزاء ، ويقولون في سخرية : أيصح أننا إذا متنا ، وصرنا ترابا ورفاتا ـــ نبعث أحياء مرة أخرى ؟! وهل يعقل أن يبعث آباؤنا

الأولون بعد أن بليت أجسامهم من زمن بعيد وتلاشت في بطن الأرض ؟!

فيأمر الله تعالى نبيه .. قل لهم يا محمد : إن الأولين من آبائكم ومن الأمم السابقة ، ومن الآخرين ـ وأنتم منهم ـ لا بد من بعثهم ، وإحيائهم من قبورهم ، ثم إنهم لمجموعون للحساب في يوم معلوم لنا ، هو يوم القيامة ، الذي يبدأ بالنفخة الأولى ، وينتهي بدخول أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار .

طعام أصحاب الشمال ومشربهم :

يا أصحاب الشمال ، أيها الضالون عن الحق ، المكذبون له ، المنكرون ليوم البعث ، إنكم لآكلون في الآخرة من شجر الزقوم ، كريه المنظر والطعم ، والرائحة . إنه شجر الزقوم ، طعام أهل الجحيم ، وطعام كل أثيم ، وسترغمون على ملء بطونكم منه ، لشدة الجوع الذي تكابدونه ، وعقب الأكل تحسون شدة العطش ، فتشربون الماء الحميم الذي بلغ أقصى درجات الحرارة ، تكفي الجرعة منه أن تقطع الأحشاء ، وكلما شربتم منه ، ازددتم عطشا على عطش ؛ فالحميم لا يروي عطشكم ، ولكن يزيد في ظمئكم ، كالإبل العطاش التي أصابها داء الاستسقاء ، فلا تزال تشرب وتشرب ولا ترتوي ، وتستمر في الشرب حتى تنفجر بطونها .

هذا هو نزلهم الذي لا راحة فيه ولا استقرار ، وتلك هي الحفاوة التي يلقونها في ضيافتهم يوم الدين والجزاء الذي كذبوا به . فبئس حالهم ، وطعامهم ، وشرابهم !!

وبئس منزلهم في جهنم !! نسأل الله تعالى السلامة !!

« نَحْنُ
خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾
ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ
ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾
ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ
جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾
نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * »

معاني الكلمات والجمل :

فلولا تصدقون : هلا تصدقون وتؤمنون بالبعث !!

أفرأيتم ما تمنون : أخبروني عن النطف التي تقذفونها في أرحام النساء .

أأنتم تخلقونه : أأنتم تصورون هذا الماء بشرا ، وتنفخون فيه الروح ؟

قدرنا بينكم الموت : كتبنا عليكم الموت ، وجعلنا لكل واحد عمرا محددا ، لا يتقدم ولا يتأخر .

وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم : لسنا بعاجزين على أن نستبدل بكم خلقا آخر مثلكم يكون أحسن منكم .

وننشئكم فيما لا تعلمون : نخلقكم ونعيدكم يوم القيامة في صورة غير صورتكم لا تعلمون كنهها كالقردة والخنازير .

علمتم النشأة الأولى : علمتم خلقنا لكم أول مرة في الدنيا ، وما مر بذلك من أطوار .

فلولا تذكرون : فهلا تذكرون قدرة الله تعالى على النشأة الأخيرة ، وتقيسونها على النشأة الأولى !!

أفرأيتم ما تحرثون : أخبروني عما تحرثون أرضه ، وتبذرون حَبَّه .

أأنتم تزرعونه : أأنتم الذين تنبتونه ، وتجعلونه زرعا ، له حب وثمر ؟

حطـامـا : هشيما هالكا متحطما .

فظلتم تفكهون : فصرتم تعجبون لحاله بعد ما أصابه ، وتنتقلون في حديثكم من عجب إلى حسرة إلى ندم ..

إنا لمغرمون : أصابنا الغرم والخسارة بما هلك من زرعنا .

بل نحن محرومون : محكوم علينا بالحرمان من زرعنا .

المـــزن : السحاب المحمل بالمطر .

أجاجـــا : شديد الملوحة لا ينتفع به في شرب ولا زرع ولا غيرهما .

النار التي تورون : النار التي تقدحون الزناد ، أو الشجر لاستخراج شعلتها أو شرارتها .

أنشأتم شجرتها : خلقتم شجرها من المرخ والعفار ، وكانت العرب تعرفهما جيدا .

جعلناها تذكرة : جعلنا نار دنياكم تذكرة للغافلين بنار جهنم في الآخرة .

ومتاعا للمقوين : متعة للمسافرين من الأغنياء والفقراء فلا غنى لأحد عنها النازلين في الأراضي الخالية البعيدة عن العمران .

فسبح باسم ربك العظيم : فنزه الله تعالى عما يقوله المنكرون لقدرته ، الجاحدون لنعمه الكثيرة .

أمر الخلق لله وحدهُ :

يخاطب الله تعالى الكافرين ، ليلزمهم الحجة بالبرهان والدليل ، وبأسلوب التوبيخ .. نحن خلقناكم من العدم ، وأنشأناكم في المرة الأولى ، وأنتم تعلمون ذلك ، بل تقرون بتفردي بالخلق « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ »(١) ، فهلا تصدقون بالبعث ؟ إن العقل يحكم بأن من قدر على البدء قدر على

---

(١) سورة لقمان / آية ٢٥

الإعادة ، فلماذا لا تؤمنون بأننا سنبعثكم ؟ لماذا لا تؤمنون بقدرتنا على إيجادكم من العدم أول مرة ، ولا تؤمنون بقدرتنا على إعادتكم بعد الموت ؟! إن هذا أمر عجيب في تفكير الإنسان « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ »[1] .

الإحياء والإماتة بيد الله تعالى :

أخبروني أيها المنكرون عما تودعونه في أرحام النساء من النطف ؟ هل أنتم الذين تصورونه بشرا ، وتنفخون الروح فيه ؟ .. أم نحن الخالقون ؟ ليس في قدرتكم ولا في استطاعتكم أن توجدوا هذا الماء الذي منه خلقتم ، ولا أن تبعثوا فيه حياة ، ولا أن تحيلوه إلى علقة فمضغة فعظام فلحم يكسو العظام ، ولا أن تتعهدوه في أحسن تقويم . إنكم ما صنعتم من ذلك شيئا ، وإنه لأمر خارق معجز لا يصنعه إلا الله القادر الخالق العظيم الذي خلق فسوى ، وقدر فهدى « أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ »[2]

إذا سلمتم بأن الله تعالى هو الخالق فلابد من التسليم بأمر البعث ، وإلا فإنكم جاحدون مكابرون !! وسوف تعلمون عاقبة هذا العناد والتكذيب والكفران . ونحن كذلك الذين كتبنا عليكم

---

(١) سورة يس / الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة القيامة / الآيات : ٣٦ ـ ٤٠ .

الموت ، وحددنا لكل منكم عمرا وأجلا لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتقدم ولا يتأخر ـــ وما نحن بمسبوقين ولا بعاجزين عن إماتتكم ، ولا عن أن نستبدل بكم خلقا آخر مثلكم يكون أطوع لله منكم وأفضل ، ونحن قادرون أيضا غير عاجزين عن خلقكم خلقا أخر ، وإعادتكم يوم القيامة في صورة لا تعلمونها ، وإن شئنا جعلناكم في الخلق الجديد كالقردة والخنازير . وفي هذا تهديد لهم أيّ تهديد!!

إنكم علمتم كيف أنشأناكم أولا من طين ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة . علمتم هذه الأطوار ، حتى غدت بديهيات تعرفونها .. فهلّا تتذكرون أن القادر على كل ذلك ، قادر على النشأة الأخيرة ، وإحيائكم من قبوركم بالبعث ، وهو أهون عليه وأيسر ؟

وهذا الزرع ما دوركم فيه :

وخذوا دليلا آخر على قدرة الله تعالى . . أخبروني عن دوركم في الزرع .. إنكم تحرثون الأرض ، وتبذرون الحب ، وهذا هو الدور الذي تقومون به ، ولا شيء لكم بعد ذلك في فلق الحب ، وإنبات الزرع ، وتنوع أجزائه ما بين جذر وساق ، وغصون وأوراق ، وأزهار وثمار . وجعله أخضر ناميا ، تتحول فيه الحبة إلى عدة سنابل في كل سنبلة مئة حبة ، أأنتم القادرون على ذلك أم نحن الزارعون المنبتون ؟ فإذا اعترفتم بأن ربكم خالق الزرع فكيف تنكرون قدرته على إحيائكم وبعثكم ؟!

لو أردنا لجعلنا زرعكم هشيما مفتتا ، لا ينتفع به في طعام ولا غذاء ، ولتركناكم ـــ بعد أن كان عندكم الأمل في حصاده ، والانتفاع به ـــ في أسوأ حال ، فظللتم تتلاومون وتنتقلون من حديث إلى

حديث .. تنعون فيه حظكم ، وتظهرون فيه حسرتكم وندمكم ، وتتعجبون من حالكم ، وتعترفون بما حل بكم من الغرم والخسارة ، وفقدان الأمل ، وحرمان الرزق بضياع القوت والحب ، وتحمل كلفة الحرث والبذر !! فمن الخير لكم أن تشكروا الله تعالى على نعمة الإنبات ؛ لأن في قدرته أن يهلككم كما يجعل زرعكم حطاما .. فاتعظوا .. واعتبروا ..

وماؤكم الذي تشربون :

وها نحن أولاء نسوق إليكم دليلا آخر ، وما أكثر الأدلة !! أخبروني عن الماء الذي يرويكم من العطش ، وفيه سرُّ حياتكم ، هل لكم دور في تكوينه ، حتى صار عذبا زلالا ، يذهب ظمأكم ؟ نحن بقدرتنا هيأنا نزوله من السحب صالحا لشربكم ، وريا لأرضكم ولزرعكم ، ووسيلة لنظافتكم ، وإبعادا للجفاف القاتل عنكم .

ولو أردنا لجعلناه ماء مالحا ، ينزل عليكم مطرا شديد الملوحة ، لا يمكن شربه ولا الانتفاع به . فلماذا لا تشكرون الله تعالى على هذه النعمة ، وأنتم تحسونها وتتمتعون بها ؟ فهلّا تشكرون ؟ وهلا تقرون بوحدانية الله ، وتصدقون بقدرته على البعث ؟ أو ليس الماء ينزل فيحيي الأرض بعد موتها ؟ وما الفرق بين إحياء الأرض بالماء وإحيائكم منها يوم القيامة ؟

وفي الحديث أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله أجاجا بذنوبنا »[1] .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم — صفوة التفاسير ج ٢٧ ص ٦٨ .

والنار التي تورون :

أخبروني عن النار التي تستخرجونها من حك عودين من الشجر الرطب أحدهما بالآخر ، فيتولد الشرر . هل أنتم الذين خلقتم شجرها ، وما فيه من بديع الصنعة ، وعجيب القدرة ؟ ليس في استطاعتكم ولا في قدرتكم ذلك ، بل نحن الخالقون لشجر المرخ والعفار ، بل لكل الشجر فتورون به النار وتوقدونها ، وتنتفعون بها إضاءة ودفئا ، وإنضاجا للطعام ، وصهرا للحديد والمعادن ، وبعثا للطاقة ، وما خلقتم أنتم شجرا ولا حجرا .

وإذا كانت حياتكم اليوم لا تستغني عن النار ، فهي نعمة تدركون قيمتها ، فاذكروها غدا يوم تكون نقمة لعذاب الضالين المكذبين .

نحن جعلناها تذكرة للغافل عن أمر البعث ؛ ليتعظ ويعتبر ، ويعرف أن الذي خلق هذه النار التي تنتفعون بها في أمور معاشكم ، قادر على خلق نار أقوى وأشد للعذاب ، وقادر أيضا على إعادة الحياة بعد الموت .

وللنار في حياة المسافرين المُقْوين الضاربين في الصحراء ، أثر أي أثر ، ففيها سلاحهم ومتاعهم ، يردون بها السباع ، ويدفعون غائلة الجوع والبرد ، ويهتدون بشعلتها في جنح الليل . فمنفعتها لهم أكبر وأعظم . إنها نعمة من نعم الله تعالى ، فاذكروا آلاء الله وقدرته على البعث والحساب ، واعترفوا بفضله ، ونزهه أيها الغافل عن كل ما لا يليق به ، واستجب لأمره الصادر من فوق سبع سموات ، « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ » .

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾
فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن
كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

فلا أقسم بمواقع النجوم : أقسم بمنازل النجوم ، ومواقع دورانها في أفلاكها ، وسيرها في بروجها ، أما « لا » فللتأكيد .

في كتاب مكنون : في كتاب مصون عند الله تعالى ، محفوظ من التغيير والتبديل والتحريف ، وهو اللوح المحفوظ ، أو المصحف الذي بأيدينا .

لا يمسه إلا المطهرون : لا يمسه إلا الملائكة ؛ لأنهم مطهرون من الشرك ، ولا يمسه إلا طاهر بالوضوء .

مدهنـــون : مكذبون جاحدون منافقون تظهرون نحوه غير ما تبطنون .

تجعلون رزقكم أنكم تكذبون : تجعلون شكر رزقكم التكذيب بالرازق ، وهو الله المنعم المتفضل عليكم بإحسانه .

بلغت الحلقوم : بلغت الروح الحلقوم عند معاناة سكرات الموت .

وأنتم حينئذ تنظرون : وأنتم حضور ترون ما يقاسي من شدائد الموت .

ونحن أقرب إليه منكم : ونحن بعلمنا وقدرتنا ورسلنا المكلفين بقبض روحه أقرب إليه منكم .

لا تبصـــرون : لا تدركون كل ذلك ولا تعلمونه .

غير مدينين : غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم .

ترجعونـــها : تردون الروح للجسد بعد بلوغها الحلقوم ، أو بعد مفارقتها البدن .

فَرَوْح	: فراحة ورحمة ، وفرح وبهجة .
وريحـان	: رزق حسن في الجنة .
أصحاب اليمين	: أصحاب اليُمْن والخير والسعادة .
فسلام لك	: سلام لك يا صاحب اليمن من إخوانك أصحاب اليمين .
فنزل من حميم	: فأول ما يقدم له من تكريم ورزق ماء من حميم شديد الغليان .
وتصلية جحيم	: ومقاساة ومكابدة لعذاب جهنم .
حق اليقين	: الحق الثابت المتيقن الذي لا مرية فيه ولا شك .
فسبح باسم ربك العظيم	: نزه الله تعالى عما لا يليق بجلاله وكماله .

قسم عظيم على أن القرآن كريم :

بعد أن أسقط الله تعالى مزاعم منكري البعث ، وألزمهم الحجة ، أخذ في هدم هذه الأباطيل التي يذيعها المشركون عن القرآن الكريم في حربهم الباغية لخاتم الأنبياء والمرسلين . فقد اتهموا القرآن العظيم بأنه إفك وكذب افتراه محمد - صلى الله عليه وسلم - وبأنه أساطير الأولين ، وبأنه سحر مأثور ، وبأنه شعر منظوم ، وبأنه من إيحاء الشياطين والكهان . ويرد الحق - تبارك وتعالى - على هذه الحملة الظالمة مدافعا عن كتابه وكلامه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فيقسم تعالى بمواقع النجوم ومساراتها في بروجها ، مؤكدا أنه قسم عظيم لو أدركتم كنهه ، وعرفتم عظمة المقسَم به ، وحكمة الله تعالى في خلقه ، وقدرته في تدبير أمر السموات والأرض

والنجوم والأفلاك . ويكفي أن نعلم أن أمر الكواكب والنجوم قد أذهل العلم والعلماء ، وأثار العجب والدهشة ، ولا يزال يفاجئنا بكل جديد . فالقسم عظيم ؛ لأن المقسم به من أقوى الأدلة على قدرة الله تعالى ، والمقسم عليه عظيم ، لأنه كلام الله ، والله تعالى يقسم ويخبرنا بأنه قرآن كريم ، ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا افتراء فيه ، إنه كثير الخيرات ، غزير المنافع ، جليل المحاسن . معجز البيان . فيه الهداية من الضلال ، كرمه الله تعالى وأعزه ، ورفع قدره على جميع الكتب ، ونزهه عما يفتريه المشركون من كذب وبهتان . فهو كريم بما يحتوي من أخلاق وتشريعات ، كريم عند من يقرؤه ، كريم لدى من يحفظه ، كريم عند الله تعالى والملائكة والمؤمنين .

إنه كلام محفوظ مصون ، في سجل عند الله تعالى ، لا تصل إليه يد بالتحريف أو التغيير أو التبديل ، ولا يقترب منه إلا ملائكة كرام بررة ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فهو بعيد كل البعد عن السحرة والكهنة والشياطين ، وليس كما تزعمون أيها المشركون .

وإذا كان القرآن الكريم المسجل عند الله تعالى في اللوح المحفوظ لا يقترب منه إلا الملائكة الأطهار ، فكذلك القرآن الكريم الذي بين دفتي المصحف والذي نتعبد بقراءته وتلاوته ، ينبغي ألا يمسه إلا طاهر . إنه القرآن المجيد ، تنزيل من رب العالمين ، فله قداسته وقدره ، والحمد لله الذي جعلنا من أهل القرآن الكريم .

توبيخ المشركين لموقفهم من القرآن الكريم :

أفأنتم أيها المشركون تكفرون بالقرآن الكريم ، وبهذا الحديث العظيم ؟ أفتكذبون بالحق الذي جاءكم به عن الله تعالى وعن الحياة الآخرة ؟ أفتنكرون هدايته وإعجازه ، وتظهرون نحوه خلاف ما

تبطنون ؟ إنه يصحح المعتقد ، ويدعوكم إلى الرشد ، ويغذي الروح والجسد ، فلماذا عن نوره تعرضون ؟ ومن قدره وشأنه تنقصون ؟ أفتجعلون حظكم منه الافتراء عليه وتكذيبه ، والكفر بما جاء فيه .. بدلا من الاهتداء به ، والشكر لله تعالى على تلك النعمة الجليلة وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى ؟ .

بئس ما ارتضيتم من خسارة لدنياكم وآخرتكم أن تضعوا التكذيب والكفران موضع الشكر والإيمان !!

تنبيه الكفار لعجزهم وسوء إدراكهم :

فهلّا إذا بلغت الروح الحلقوم في حالة النزع عند الموت وأنتم تسمعون صوت الحشرجة في صدر المحتضر ، وتحسون شدة كربه ، وترون معاناته ، وما لكم إلا نظرة عجز ، ورؤية ذهول ، وضعف تام عن دفع الموت ، أو تخفيف الهول .

فهلا أمسكتم عليه روحه أيها العجزة ؟ ماذا تملكون لهذا العزيز عليكم ؟ نحن بعزتنا وعلمنا وإحاطتنا أقرب إليه منكم ، ولكن لا علم لكم بذلك ، ولا تبصرون ملائكتنا الكرام الذين حضروا لقبض روحه . فهلا أرجعتم له روحه إن كنتم صادقين كما تزعمون في أنه لا بعث ولا حساب ، وأنكم غير مجزيين على أعمالكم ؟ ألا تدركون أن هذا المصير نفسه ينتظركم ؟ وأن أقرب المقربين إليكم سيتخلى عنكم ، ولا يملك لكم إلا الدمع والحسرة؟ وأن الله تعالى وحده هو القادر الذي لا يعجزه شيء ، فهو ربكم ، ومالك حياتكم ومماتكم وبعثكم ؟

إنه الله تعالى . . فلماذا لاتؤمنون؟ !!

طبقات الناس عند الموت :

بعد أن بين الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ حال الميت عند نزع الروح ، أراد أن يبين حالَهُ بعد الموت ، وأن الناس عند توديع الدنيا الفانية واستقبال الحياة الباقية ، سيكونون طبقات ومنازل كما قال تعالى : « وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ »[1].

ـــ فأما إن كان هذا الميت من المقربين المحسنين السابقين إلى أعلى الدرجات فله راحة ورحمة ، وانشراح صدر وبهجة ، وحسن رزق ، وكريم أنس ، وعيشة راضية ، ونعيم مقيم .

ـــ وأما إن كان من الذين رضي الله تعالى عنهم ، من أصحاب اليمين ، الناجين السالمين من عذاب الله تعالى ، فتقول له الملائكة مبشرة : سلام لك أيها المؤمن الكريم من إخوانك أصحاب اليمين الذين سبقوك إلى رحمة الله تعالى .

ـــ وأما إن كان المتوفّى من أصحاب الشمال والشؤم ، المكذبين بالبعث ، الضالين عن الهدى ، فنزله وضيافته ، وأول ما يقدم لتكريمه ماء من حميم جهنم ، بلغ أقصى درجات الحرارة ، يغلي في بطنه ، ويقطع أمعاءه ، وله عند ربه تصلية الجحيم ، والإقامة بها ، والمقاساة لعذابها ، فما أسوأ نزله ؟! وما أتعس إقامته ؟! وما أقسى عذابه ؟!!

إن هذا الذي قصصناه عليك في القرآن الكريم يا محمد لهو عين اليقين الثابت ، والحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ونزه مولاك عن كل ما لايليق بذاته ـ تعالى شأنه وكماله ـــ ولا إله غيره .

---

(١) سورة الواقعة / آية ٧ .

سورة الحديد

تمهيد :

سورة الحديد من السور التي نزلت بالمدينة ، وهي من السور التي افتتحت بتسبيح الله وتنزيهه ، ومثلها سور : (الحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن) وتسمى « المسبّحات » .

وتدعو هذه السورة المسلمين إلى أمور تحقق للجماعة المسلمة ذاتها ، وتقربها من ربها ، وهذه الأمور هي :

١ ــ الدعوة إلى الايمان بالله تعالى إيمانا صادقا ، وتنزيهه وتقديسه ، لأنه ــ سبحانه ــ مالك الكون ومدبره ، وبيده أمر الحياة والموت ، المتصف بكل صفات الكمال .

٢ ــ الدعوة إلى البذل والعطاء في سبيل الله تعالى ؛ لأن الله تعالى خالق هذا الكون بكل ما فيه ، والإنسان مستخلف فيما خلق الله تعالى ، فعليه أن ينفق وفق ما أمره الله تعالى ، ولا يجوز له أن يبخل ، أو يكنز المال والثروة لنفسه فقط .

وقد وعد الله تعالى المنفقين في سبيله الجزاء الأوفى ، مع أن كل ما يملك الإنسان في هذه الدنيا يعود في أصله إلى ما خلقه الله تعالى ، ويسّره للإنسان من أسباب الكسب وتحصيل الثروة .

٣ ــ وتبين السورة كذلك فضل المبادرة والسبق في ميدان البذل والعطاء ، في وقت الشدة وفي وقت الرخاء .

٤ ــ كما تكشف السورة عن فئة ضالة تسترت برداء الإسلام، ولم تؤمن ، وهي طائفة المنافقين التي أظهرت الإسلام حينما قوى المجتمع المسلم بالمدينة طمعا في تحقيق مكاسب دنيوية .

٥ ــ وفيها دعوة إلى الأخذ بأسباب القوة ؛ لنصرة دين الله تعالى بتسخير عناصر هذا الكون فيما ينفع الناس ، ويحقق الأمن والسلام .

٦ ــ وتتحدث السورة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وتسجل بعض أحوالهم ، وتوضح الغاية من بعثة الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وتدعو إلى الإيمان ترغيبا في نيل الفضل العظيم من الله تعالى ، وتحذر المؤمنين أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب الذين حرَّفوا كتبهم ، وغيروا وبدلوا فيما جاءهم به رسل الله تعالى من الدين الحق .

٧ ــ وناسب مجيء السورة الكريمة بعد سورة (الواقعة) حيث ختمت بقول الله تعالى : « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ »[1] ، وهو أمر بتنزيه الله تعالى ، ووصفه بكل كمال ، لأن كل من في الوجود ، وكل ما في السموات وما في الأرض يسبح لله تعالى ،وجاءت بداية سورة (الحديد) : « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ »[2] لتؤيد نهاية سورة (الواقعة) ، وتوضح الارتباط بين السورتين .

---

(١) الواقعة / آية ٩٦ .
(٢) الحديد / آية ١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي
وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى
الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

سبح لله	: معنى سبَّحته : بعَّدته عن السوء ، والمراد تنزيه الله تعالى عما لا يليق بكماله .
العزيز الحكيم	: القادر الذي لا يغلب ، والذي خلق كل شيء بحكمة .. فاستحق التمجيد والتنزيه .
له ملك السموات والأرض	: مالك السماوات والأرض يتصرف فيهما كيف يشاء .
يحيي ويميت	: قادر على أن يحيي من يشاء ، ويميت من يشاء .
الأول	: ليس لوجوده بداية ، وسابق في الوجود على جميع الموجودات .
الآخر	: ليس لبقائه نهاية ؛ لأنه باق بعد فناء خلقه .
الظاهر	: العالي الغالب على كل شيء ، بآثاره التي تدل على وجوده .
الباطن	: لا تحيط به الحواس ، ولا تدركه العقول .
استوى على العرش	: سيطر على الوجود كله بالتدبير ، واستولى عليه بالتصريف .
ما يلج في الأرض	: ما يدخل في الأرض من مطر وجذور وبذور ، وما يخالطها من معادن .
وما يخرج منها	: وما يخرج من الأرض من نبات وشجر وبراكين ومعادن ونفط ..
وما يعرج فيها	: ما يصعد إلى السماء من الملائكة وأعمال العباد ..

وهو معكم : بعلمه ، وقدرته ، وسلطانه .

يولج الليل في النهار : يدخل بعض وقت الليل في وقت النهار ، فيطول النهار .

ويولج النهار في الليل : يدخل بعض وقت النهار في وقت الليل ، فيطول الليل .

عليم بذات الصدور : يعلم ما تحويه الصدور من خفايا ونيات ، فلا تخفى عليه خافية من أمر المخلوقات .

كل مخلوقات الله تعالى تمجده وتنزهه :

هذا الكون كله خلقه الله تعالى ، وكل ما فيه من مخلوقات في السموات أو في الأرض ، نادى بوجود الله تعالى ، وقدّسه ونزّهه عن كل ما لا يليق به سبحانه ، ومجّده بكل كمال يليق بذاته — سبحانه وتعالى — فأبعده عما لا يليق بجلاله وكماله ، سبحانه هو واحد في ذاته وصفاته ، تفرد في صفات الجلال والكمال ، وأقر كل مخلوق في العالم العلوي والعالم السفلي أنه الله تعالى ، مانح الوجود ، وواهب الحياة ، العقلاء في السموات والأرض يقرون ويعتقدون ، والحيوانات والجمادات تدل على صانعها ، وكأنها تنطق بتسبيحه ، « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[1] ، « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ »[2] ، وأخرج مسلم في صحيحه عن جابر

---

(١) الإسراء/آية ٤٤ .

(٢) النور/آية ٤١ .

ابن سمرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « إن بمكة حجرا كان يسلم عليَّ ليالي بعثت إني لأعرفه الآن » .

إنه الاعتراف والإقرار والتمجيد والتنزيه ؛ لعزته الغالبة ، وحكمته البالغة ، وقدرته الباهرة ، فالكواكب والنجوم والليل والنهار والنبات والحيوان والجمادات تسير وفق مشيئته ، وتخضع لأمره ــ تعالى ــ وعزته ، « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ » (١) .

وسجود هذه المخلوقات وغيرها هو انقيادها لمشيئة الله تعالى ، وتنفيذها لأمره سبحانه ، يشهد بذلك نظام هذا الكون المحكم البديع ، وأداء هذه المخلوقات للوظائف التي خلقها الله تعالى من أجلها « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (٢)

الله تعالى مالك كل شيء وبيده سبحانه أمر الحياة والموت :

إن الله ــ عز وجل ــ هو مالك الكون بكل ما فيه ، يصرِّفه بحكمته ـ تعالى ـ كيف يشاء ، فهو خالق الحياة ، ومانحها لكل مخلوق حي ، بحيث يؤدي كل كائن حي وظيفته في هذه الحياة ؛ لتستقيم الحياة وتستمر إلى ما شاء الله تعالى ، وهو وحده - سبحانه - المالك لأمر الحياة والموت ، القادر وحده على أن يهب الحياة لكل كائن ، ويسلبها من كل حي متى شاء سبحانه ، ولا أحد من

---

(١) الحج/آية ١٨ .

(٢) الإسراء/آية ٤٤ .

مخلوقاته بقادر على أن يهب الحياة لأي كائن ، ولا أن يسلبها منه ، فهو ــ سبحانه ــ القادر على كل شيء ، يسيِّر الكائنات بحكمته وقدرته .

صفات الكمال لله تعالى وحده :

هذه الكائنات الكثيرة ، وهذا الكون الفسيح الذي لم نكتشف منه ــ على الرغم من تقدم العلم إلا القليل ــ كله مخلوق لله تعالى خاضع لأمره ومشيئته ، وهذا الخالق ـ سبحانه ــ متصف بكل صفات الكمال التي تليق بجلاله ، ولا يشاركه فيها أحد من خلقه ، فهو سبحانه الأول بلا بداية ، والآخر بلا انتهاء ، فوجوده ـ تعالى ـ لا يحدَّد بزمن ، وبقاؤه سبحانه لا يلحقه أي نقص أو فناء ، وهو الظاهر الذي لا يخفى ، فكل الموجودات شواهد ناطقة بوجوده ، ودلائل على أنه سبحانه الغالب المسيطر ، وهو الباطن الذي لا تدركه الحواس ، فليس فوقه شيء ، وليس دونه شيء ، فهو المحيط سبحانه بالكون ظاهره وباطنه ، وهو بكل شيء عليم ، لا تخفى عليه خافية من أمر هذا الكون كله ؛ فيعلم حتى ما يحدِّث الإنسان به نفسه « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ »(١) ، « وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ »(٢) .

---

(١) ق/آية ١٦ .

(٢) الأنعام/آية ٥٩ .

فهو سبحانه ـ عالم بأمر الأرض ، وبكل ما يدخل فيها أو يخرج منها من نبات أو ماء أو معادن أو غيرها ، وعليم بأمر السماء ، وبكل ما ينزل من مطر أو أشعة أو غيرها .

خلق السموات والأرض وأحاط علمه بكل شيء :

خلق الله السموات والأرض وما فيهما ، وهما بعض ملكه تعالى ، وقد أبدع خلقهما ، وأحكم صنعهما ، وكل ذلك في ستة أيام ، ولو شاء لخلقهما في لمح البصر أو أقل ، ولكنه التقريب لأفهامنا ، وعلينا أن نتصور به كمال قدرته ، وتحقيق عزته ، فأيام الأسبوع ناتجة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس ، التي لم تكن قد خلقت يوم خلق الله تعالى السموات والأرض ، وكوّن الله تعالى الأرض من اليابسة والماء ، وهيأها ليحيا عليها الأحياء ، واستخلف الإنسان فيها ، ليعمرها ويعبد الله تعالى ، ثم سيطر على هذا الخلق يدبر أمره ، واستولى عليه يصرف شؤونه ، ويعلم ما يدخل الأرض من مطر وجذور وبذور ، وما يخرج منها من نبات وشجر وبراكين ومعادن ونفط ، وما ينزل في كل لحظة من السماء من الأمطار والملائكة والصواعق والإشعاعات والشهب ، وما يصعد إليها من أعمال العباد والملائكة . حركة متتابعة متزاحمة ودائمة .. الله يعلمها ، ويحيط علما بكم ؛ لأنه معكم بقدرته وسلطانه وعلمه ، حيث كنتم ، وفي كل الأماكن التي توجدون فيها رقيب على أعمالكم ، بصير بأفعالكم .

وتكرر قوله تعالى : « لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » لتأكيد ملكه ، وإثبات تصرفه فيهما كما يشاء ، وإليه وحده ترجع أمور

الخلائق في الآخرة ، فيقضي فيها بحكمه ، ولا مهرب من الله ـ تعالى ـ إلا إليه ، فله السلطان المطلق ، ولن يفلت من حسابه أحد .

تعاقب الليل والنهار ، وطولهما وقصرهما دليل القدرة الإلهية :

خلق الله تعالى الليل والنهار ، وجعل لهما نظاما محكما ، بحيث لا تخلو ساعة من زمن ، أو بقعة من أرض من ليل أو نهار ، وفي حركتهما يطول أحدهما أو يقصر ، فيقصر الآخر أو يطول ، على امتداد العام ، بحيث يقابل الليل النهار دائما على سطح الكرة الأرضية ، وكل ذلك لمصلحة الإنسان وسائر المخلوقات ، واستمرار الحياة على ظهر هذه الأرض ، وضمان انتفاع الإنسان بهذا النظام الكوني الذي ابتدعته القدرة الإلهية .

فواجب الإنسان أمام هذه القدرة الإلهية الحكيمة أن يطيع أوامر ربه ، ويراقبه في كل ما يقول ويعمل ؛ لأنه سبحانه عليم بكل ما نقول ونفعل ، وما تنطوي عليه صدورنا ، من إيمان أو نفاق أو كفر ، وسيحاسبنا على كل هذا في يوم القيامة ، حيث تنكشف كل خبايا النفوس ، ودخائل الصدور .

* * * *

« ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ
عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ
وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى
مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى
يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

آمنوا بالله ورسوله : صدقوا بأن الله واحد ، وأن محمدا عبده ورسوله .

وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه	: وأنفقوا من مال الله تعالى الذي أعطاكم ، وجعلكم خلفاء عليه بالتمتع والتصرف .
وما لكم لا تؤمنون بالله	: وأيُّ مانع يمنعكم عن الإيمان بالله تعالى ؟!!
وقد أخذ ميثاقكم	: وقد أخذ الله تعالى عهدكم بالأدلة الواضحة على توحيده ، ووجوب الإيمان به .
عبده	: رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .
آيات بينات	: آيات واضحات ، وهي آيات القرآن الكريم .
ليخرجكم من الظلمات إلى النور	: ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .
وما لكم ألا تنفقوا	: أيُّ شيء حصل لكم ، وكان السبب في عدم الإنفاق ؟!!
ولله ميراث السموات والأرض	: وكل شيء في السماوات والأرض راجع إلى الله تعالى ، كما يرجع كل شيء إلى الورثة .
قبل الفتح	: قبل فتح مكة ، أو قبل صلح الحديبية .
وكلًّا وعد الله الحسنى	: وكلا الفريقين وعده الله تعالى أحسن الجزاء .

يُقْرِض الله : يُنْفق ماله في سبيل الله تعالى ، وهذا ترغيب في الإنفاق .

قرضا حسنا : من مال حلال ، يرجو به وجه الله عز وجل .

فيضاعفه له : يتفضل عليه بزيادة ثوابه مقادير كثيرة ، أي الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف كما يشاء الله تعالى .

وله أجر كريم : أي يوم القيامة ، وهو الجنة دار النعيم المقيم .

دعوة إلى الإيمان والإنفاق :

وبعد أن بين الله تعالى مظاهر قدرته ، وأدلة وجوده ، وفضله الكبير في خلق هذا الكون ، وتهيئته لحياة الإنسان ، جاء الأمر الإلهي الحكيم بالإيمان بالله - تعالى - وبرسوله الكريم ، وأن يحسن الإنسان التصرف في خيرات هذا الكون التي خلقها الله تعالى ، ومكنه من استغلالها بالإنفاق في الوجوه المشروعة التي تعود بالنفع على المجتمع الإنساني كله ، وعدم الشح والبخل وكنز المال :

« وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ »[1]

---

(١) التوبة / الآيتان : ٣٤ ، ٣٥

وقد وعد الله ـ تعالى ـ المؤمنين الذين ينفقون مما استخلفهم الله تعالى فيه بالجزاء الكبير ، مع أنهم ينفقون مما أعطاهم الله تعالى ، ومع ذلك يثيبهم الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه على هذا الإنفاق .

ونحن نرى أن الأمم التي ينفق أبناؤها أموالهم وجهودهم ولا يبخلون بعطاء تتقدم وتسود ، وتحقق السعادة لأبنائها.

ليس لمن لم يؤمن أي عذر :

وأيُّ مانع حصل لكم فمنعكم من الإيمان بالله تعالى ، وكان السبب في عدم إيمانكم ؟ ! بعد أن منحكم الله العقل لتفكروا به ، وتتبينوا الصحيح من الخطأ ، وأرسل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يدعوكم إلى الإيمان بالله تعالى بما ينزل عليه من الوحي ، وقد أخذ الله تعالى عهدكم بالأدلة الواضحة على توحيده والإيمان به ، وما ترونه في الكون من بديع صنعه ، وكمال قدرته ، وإن كنتم مستعدين للإيمان .. فالعهد الذي أخذه عليكم من أعظم الأسباب للإيمان ، والنظر في الكون ومبدعه ، والتفكير فيه من أوجب الأسباب للإيمان ، فأي عذر لكم ؟! فبادروا قبل فوات الأوان !!

من رحمة الله تعالى إنزال القرآن الكريم :

من رحمة الله تعالى بكم ، وشفقته عليكم ، أنه هو الذي ينزل على عبده محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ القرآن آيات واضحات ؛ ليخرجكم بها من ظلمات الكفر والشرك إلى نور اليقين والإيمان ، وهل هناك رأفة أو رحمة أبلغ من هذا ؟! فلا عذر لكم .

لا عذر لمن يبخل بما أعطاه الله ولا ينفق منه :

ينكر الله تعالى على من يبخلون بما أعطاهم الله ؛ لأنه لا عذر لمن يبخل ولا مانع من الإنفاق ، فالماء ابتداء من عند الله تعالى ، فهو الخالق الرازق ، « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » (١) ، ولستم مخلدين ، فأمر السموات والأرض في النهاية عائد إلى الخالق جل وعلا ، ولن يدخر لكم يوم الحساب إلا ما أنفقتموه في أعمال الخير والبر ، ووجوه الإنفاق المشروعة .

درجات المنفقين والمقاتلين في سبيل الله تعالى :

إن منازل المنفقين والمقاتلين في سبيل الله ـ تعالى ـ ليست واحدة ، فهناك قتال أفضل من قتال ، وإنفاق أفضل من إنفاق ، فالذين بذلوا المال والنفس في ساعة الشدة ووقت العسرة ، أيام كان الإسلام غريبا ضعيفا محاصرا ، قبل فتح مكة ، أو قبل صلح الحديبية ، لاشك في أنهم أفضل وأعلى منزلة عند الله تعالى .. من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح ، وقاتلوا مع رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم - بعد ظهور أمارات النصر ، وبعد أن أعز الله ـ تعالى ـ الإسلام بدخول الناس فيه أفواجا .

نزلت في أبي بكر الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق ماله كله في سبيل الله ، ودافع عن الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة سبأ/آية ٣٦ .

ومع تفاوت المنفقين والمقاتلين في سبيل الله في الفضل والأجر ؛ فإن الله تعالى ـــ بكرمه ـــ قد وعد كل من قاتل في سبيله وأنفق ، الجزاء الحسن ، والمثوبة العظمى ، فالله -تعالى- لا يحرم مَنْ عمل صالحا من ثواب هذا العمل ؛ لأنه -تعالى- واسع الفضل، وهو -سبحانه- العليم بما تنطوي عليه النفوس من صدق النية أو عدم صدقها .

الترغيب في الصدقة والإنفاق :

وتأتي الآيات الكريمة بعد ذلك إلى مقام الترغيب في الإنفاق .. ويأتي سؤال من قبل الحق تبارك وتعالى ؛ ليفتح باب الخير المضاعف لمن يريد أن يستثمر مدخراته عند الله تعالى ، وما على الراغب في هذا إلا أن ينفق ماله في سبيل الله ، فكأن المنفق يقرض الله - تعالى - قرضا حسنا ، وأن كل ما بأيدينا رزق من عنده تعالى ، فهل يبخل إنسان بعد ذلك ؟!

فهو سبحانه يَعد المنفقين بالمثوبة والجزاء أضعافا مضاعفة غير محدودة ولا محصورة ، فعلى العاقل أن يسارع إلى الاستجابة لنداء الله تعالى ، فإذا كان الناس في الدنيا يحرصون على زيادة أموالهم واستثمارها فأولى بهم أن يدخروا للدار الآخرة بالإنفاق في سبيل الله - تعالى - الذي لا تنفد خزائن عطائه ورحمته ، فهو وحده القادر على مضاعفة الجزاء ، وتضعيف العطاء ـــ والمال الذي بأيدينا من فضل الله تعالى وعطائه ، فإذا أنفقناه فيما يرضي الله عز وجل - كافأنا عليه بأكثر منه ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، ولنا مع ذلك الأجر الكريم ، وهو الجنة ونعيمها المقيم .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة : قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله : وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي — أي بستاني — وله فيه ستمئة نخلة ، وأم الدحداح فيه هي وعيالها ، فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : أخرجي فقد أقرضته ربي — عز وجل — فقالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ص ٣٠٧ ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا
نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ
مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟
بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ *

معاني الكلمات والجمل :

يسعى نورهم : يحيط بهم نورهم من كل جهة بسبب أعمالهم الصالحة .

بين أيديهم وبإيمانهم : هو دليلهم إلى الجنة على الصراط يوم القيامة .

بشراكم اليوم : تبشرهم الملائكة بالجنة .

خالدين فيها : مقيمين فيها دائما .

الفـــوز : الظفر والنجاح .

نقتبس من نوركم : نستضيء من نوركم

ارجعوا وراءكم : ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور .

فالتمسوا نورا : اطلبوا نورا لأنفسكم .

فضُرب بينهم بسور له باب : فأقيم حاجز بين أهل الجنة وأهل النار (له باب يوصل إلى الجنة) .

باطنه فيه الرحمة : باطن السور ، داخله من جهة المؤمنين .. الجنة .

وظاهره من قبله العذاب : خارجه ، الجهة التي فيها المنافقون .. النار .

ينادونهـــم : ينادي المنافقون المؤمنين .

فتنتم أنفسكم : أهلكتم أنفسكم بالنفاق .

تربصتـــم : انتظرتم المصائب تحل بالمؤمنين وتنزل بهم .

ارتبتـــم : شككتم في الدين ، وفي صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وغرتكم الأماني : خدعكم ما كنتم تمنون به أنفسكم من زوال الإسلام.

حتى جاء أمر الله : حتى جاءكم الموت .

وغركم بالله الغرور : خدعكم الشيطان بكل ما يشغل عن الله تعالى ، أو زين لكم المعاصي ، وخدعكم بعفو الله تعالى .

فديـــة : ما تبذلون من عوض لتخرجوا من النار .
مأواكم النار : مكانكم في النار .
هي مولاكم : تتولى أمركم ، يقال لهم ذلك تهكمًا بهم ، وسخرية منهم .
بئس المصير : الذي تصيرون إليه ، وهو الإقامة في النار .

المؤمنون الأبرار يتقدمهم نورهم على الصراط :

في يوم القيامة ترى المؤمنين والمؤمنات ـــ بعد الحساب ـــ أنوارهم تحيط بهم من كل جهة ؛ بسبب أعمالهم الصالحة ، يستضيئون بها على الصراط ، وهم يتجهون إلى الجنة إلى دار الرضوان والنعيم ، وتقول لهم ملائكة الرحمة :

بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ستقيمون فيها ، في ضيافة الرحمن ، لا تخرجون منها ، وهذا فوز عظيم لكم ، وليس بعد الفوز بالسعادة الأبدية أي فوز !!!

حال المنافقين :

بعد أن بين الله ـ تعالى ـ حال المؤمنين، جاء بعده حال المنافقين، الذين كانوا في ظاهرهم مع المسلمين ، وفي باطنهم مع الكافرين ، ويقول المنافقون والمنافقات وهم يتخبطون في ظلمات الضلال ؛ بسبب أعمالهم السيئة .. ـــ يقولون للمؤمنين بعد الحساب ـــ : انظروا إلينا ، وأرشدونا إلى الطريق بنوركم ، وامنحونا ضياء من إيمانكم ، انظرونا ونوروا لنا طريق الصراط . فتقول لهم زبانية العذاب بسخرية واستهزاء : ارجعوا وراءكم حيث كنتم في الموقف الذي حصل فيه

المؤمنون على النور ، واطلبوا لأنفسكم نورا ، فيرجعون ، فتفصل الملائكة بينهم وبين المؤمنين بحاجز يمنعهم ، ويوقفونهم ليستمروا في حيرتهم وضلالهم ، فاليوم يوم الفصل ، .. هذا الفاصل باطنه فيه مظاهر الرحمة من الجنة .. من جهة المؤمنين ، وظاهره المقابل له من جهة المنافقين فيه عذاب جهنم .

لا سبيل لنجاة المنافقين من النار :

وحينئذ ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم : ألم نكن معكم في الدنيا نعمل مثل ما تعملون ؟! لقد كنا نصلي كما تصلون ، ونصوم كما تصومون ، ونغزو معكم ، ونقوم بأعمال الإسلام مثلكم ، فلماذا كتبت لكم الجنة تنعمون فيها ، وكتبت علينا النار نتعذب فيها ؟!!

فيقول لهم المؤمنون : نعم ، لقد ظهر منكم أنكم كنتم معنا ، ولكنكم كنتم غير مخلصين في عبادتكم ، وغير صادقين في أعمالكم ، فاخترتم لأنفسكم طريق الهلاك ، وأوقعتم أنفسكم في شرور النفاق ، وانتظرتم المصائب تحل بالمسلمين ، وتنزل بهم من مثل هزيمة الكفار لهم ، وشككتم في صحة الدين الإسلامي ، وفي صدق الرسول الكريم ، وخدعكم ما كنتم تمنون به أنفسكم من زوال الإسلام ، وضعف المسلمين ، ومكثتم على ذلك حتى جاءكم الموت ، ونزل بكم أمر الله تعالى ، وفارقتم الدنيا ، بعد أن خدعكم الشيطان ، وزين لكم كل ما يشغلكم عن الله تعالى ، وزين لكم المعاصي ، وخدعكم بعفو الله ، وحبب إليكم النفاق ، وملأ صدوركم بالوسوسة بالأماني الباطلة ، فاليوم لا سبيل لنجاتكم ، ولن

يُقْبَلَ منكم ولا من الكافرين عوض لتتخلصوا من العذاب ، فمكانكم ومنزلكم في النار ، تتولى أموركم وتعذيبكم ، يُوجه ذلك لهم سخرية بهم وتهكما واستهزاء .. وبئس هذا المصير الذي صرتم إليه ، وهو الإقامة الدائمة في النار .

* * * *

« ۞ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ
ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ
وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

ألم يأنِ : أي ألم يأت الوقت ؟ (استفهام للحث على ما بعده)

أن تخشع قلوبهم	: أن تلين قلوبهم ـ عتاب من الله تعالى للمؤمنين ليزدادوا إيماناً .
لذكر الله	: عند تذكر حساب الله ـ تعالى ـ وجزائه .
وما نزل من الحق	: القرآن المبيِّن للحق .
الذين أوتوا الكتاب	: اليهود والنصارى .
فطال عليهم الأمد	: طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم .
فقست قلوبهم	: أصابتها الغفلة ، ولم تفدها الموعظة ، فحرفوا وبدلوا في كتبهم .
وكثير منهم فاسقون	: وكثير منهم خارجون على تعاليم دينهم ، تاركون العمل بما أنزل إليهم .
يحيي الأرض بعد موتها	: قادر على أن يحيي الأرض الجدباء بالمطر ، ويلين القلوب بعد قسوتها بالذكر .
الآيات	: الأدلة والمواعظ والعبر .
المصدقين	: المتصدقين .
أقرضوا الله	: أنفقوا مالهم في سبيل الله (وهذا ترغيب في الإنفاق) .
قرضا حسنا	: قرضا من مالهم الحلال ، يرجون به وجه الله عز وجل .
الصديقون	: أصحاب المنزلة الرفيعة العالية عند الله تعالى .
الشهداء	: الذين قتلوا في الجهاد في سبيل الله تعالى .
ونورهم	: وأعمالهم الصالحة نور يحيط بهم يوم القيامة .

سبب النزول :

أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن ، فأنزل (ألم يأن للذين آمنوا ....) الآية »[1] .

وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا) إلا أربع سنين »[2] .

وكان المسلمون في مكة يعيشون في خوف وفقر ، ولما قدموا المدينة أصابتهم النعمة واطمأنوا ، وكثر رزقهم ، وفترت هممهم في العبادة عما كانوا عليه في مكة ، فعاتبهم الله تعالى بعد أن استبطأ منهم كامل استجابتهم للمرتبة التي يريدها لهم .

عتاب مؤثر :

عاتب الله تعالى المؤمنين في المدينة المنورة على فتور هممهم في العبادة ، وانشغالهم بأمور الدنيا عن ذكر الله تعالى ، وتدبر كتابه الكريم ، بعد أن فتح الله تعالى عليهم أبواب الرزق بما يسره لهم من فتح ونصر ، وهذا الفتور يورث المرءَ قساوة في القلب ، وغفلة عن ذكر الله ، فقال : ألم يأت الوقت للذين آمنوا بالله ورسوله ، أن تخشع قلوبهم ، وتلين أفئدتهم ، عند تذكرهم لحساب الله وجزائه ، وعند سماعهم لما نزل من القرآن المبين عن الحق ، ويتدبروا أسراره ، ويعملوا بتعاليمه ، ويتمسكوا بهديه ، فليس وراء الغفلة عن ذكر الله تعالى ، إلا الخروج على تعاليم الإسلام ، ولا يصح أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود

(١) فتح القدير جـ٥ ص ١٧٤ .
(٢) المصدر نفسه .

وكتابهم التوراة ، والنصارى وكتابهم الإنجيل ، بعد أن طال الزمان بينهم وبين أنبيائهم ؛ ولذلك السبب بدّلوا وغيّروا وحرّفوا في كتبهم ، وكثير منهم خرج على تعاليم دينه ، وترك العمل بما أنزل في الكتب السماوية ، ولم يبق على الدين الصحيح إلا قليل منهم ، ونحن نرى في حياتنا بين زملائنا ومن نخالطهم ، أن قلوب الناس سريعة التقلب ، وتحتاج دائما إلى من يذكرها بالله - تعالى - ، حتى لا يصيبها صدأ الغفلة ، وتنطمس فيها معالم الإيمان ، فالإنسان الذي يكون على ذكر دائم لله تعالى ، يكون مستقيم السلوك ، رقيق القلب ، ليّن الجانب ، ومن ثم .. فإن من علامات القلب القاسي بُعْدُ صاحبه عن الله تعالى .

ذكر الله تعالى يحيي القلوب كما يحيي الماء الأرض الجدباء :

واعلموا أن الله تعالى يحيي الأرض بعد قفرها وجدبها ، إذا نزل عليها الماء اخضرّت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فكذلك يحيي الله القلوب الميتة ، ويوجد فيها الخشوع واللين بذكر الله — سبحانه وتعالى — وبقراءة كتابه الكريم ، وبالعلم والحكمة ، والعبرة والموعظة ، وطرد وساوس الشيطان ، والتزام السلوك القويم .. وفي هذا ضمان لرقة القلوب وشفافيتها ، وحسن مراقبتها لله — عز وجل — ، ولقد بين الله تعالى الأدلة والآيات ، وضرب لكم الأمثال ، كي تعقلوا ما فيها من المواعظ ، وتتدبروا ما تحويه من الهدى .

ترغيب في البذل والإنفاق :

وتعود الآيات لتأكيد الترغيب في الإنفاق ، للعناية به ، وللاهتمام بمحاربة الشح في النفوس ، وليكون من ورائه القوة للمجتمع ،

والسعادة لأفراده ، فإن المتصدقين والمتصدقات حين ينفقون أموالهم في وجوه الخير ، وفي أعمال البر ، فكأنما يقرضون الله تعالى ، ويتعاملون معاملة مالية مع خالق الكون ، ومالك الوجود ، مع نزاهة الإنفاق بما يليق بالتعامل مع الله تعالى ، وطيِّب المال وحلاله ، واحتساب الأجر ، يريدون وجه الله — عز وجل — ، وثوابهم مضاعف ، وعائد إنفاقهم عشرة أمثال إلى سبعمئة ضعف ، ولهم بعد ذلك كله أجر كريم وهو الجنة .

الإيمان الصادق يرفع المكانة في الآخرة :

والذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وبما جاءوا به من عند الله تعالى ، وعملوا به ، لهم مقام رفيع ، هو مقام الصِّدِّيقين ، وهو مقام عال يحصل عليه كل من آمن بالله تعالى ورسله ، ويتزَّل منزلة الشهداء العالية ، ذات الحظوة والقرب من الله تعالى ، وسيخصهم الله تعالى بالثواب والأجر الجزيل ، وستحيط بهم أعمالهم الصالحة نورا يتميزون به يوم القيامة ، وهم يعبرون الصراط في أمن وأمان إلى الجنة .

وأما الذين كفروا ، وجمعوا بين الكفر بالله ورسوله ، وكذبوا بآيات الله تعالى ، فهم أصحاب جهنم ، تصاحبهم ويصاحبونها ، ويعذبون بها عذابا مقيما ، ولا أجر لهم ولا نور ، بل ظلمة دائمة جزاء كفرهم وتكذيبهم .

« فمن ذا الذي يترك الكرامة والنعيم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ؟!! » .

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟
إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ
ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا
فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

لعب	: ما رغّب في الدنيا .
ولهو	: ما شغل عن الآخرة .
وزينة	: التزين بمتاع الدنيا دون عمل للآخرة .
وتفاخر	: بالأنساب والغنى والثراء.
التكاثر	: تسابق في الإكثار من الأموال والأولاد .
غيث	: مطر .
الكفار	: الزُّرّاع ، لأنهم يكفُرون البذور : أي يضعونها في الأرض ويغطونها بالتراب .
يهيج	: يجف بعد خضرته .
فتراه مصفرا	: متغيرا عما كان عليه من الخضرة والنضارة إلى لون الصفرة والذبول .
يكون حطاما	: فتاتا متهشمًا متكسرًا .
الغرور	: الخداع والتضليل .
سابقوا	: سارعوا .
وجنة عرضها كعرض السماء والأرض	: تصوير لسعة الجنة بأوسع شيء يتصوره الناس وتسعه عقولهم .
في كتاب	: اللوح المحفوظ .
نبرأها	: نخلقها .

لكيلا تأسوا : حتى لا تحزنوا باليأس .
مختال فخور : متكبر متفاخر .
ومن يتول : يعرض عن الإنفاق .
غني حميد : غني عن إنفاقكم ، مستحق لكثرة الحمد على نعمه .

الدنيا لعبة تلهي الناس عن العمل للآخرة :

بعد أن بين ـ سبحانه وتعالى ـ حال الكافرين ، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ـ وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها عليهم - بين الله تعالى لهم حقيقة الدنيا ، وهوان شأنها ، وقلل من أمرها ، وأنها لعب بأسباب التعلق بها ، يتعب الناس أنفسهم فيه كما يتعب الصبيان الأغرار أنفسهم باللعب بلا ثمرة ، ثم تتعب قواهم نتيجة الجهد الضائع الذي بذلوه ، واللهو الذي شغلهم عما يعود عليهم بالنفع ، وهكذا الدنيا تلهي من تعلق بها عن العمل للآخرة ، وتحجبهم عن عمل الطاعات. ثم يزول هذا الذي شغلهم وألهاهم لأنه لا قيمة له .

وكم من الناس تراه متعلقا بالدنيا ومهموماً بها ، فإذا حقيقة انشغاله لعبة طفل بالنسبة لما في الآخرة ، وزينة زائفة زائلة ، وافتخار في المجالس والأحاديث بتفاهات .. بالمال .. بالأحساب .. بالأنساب .. وكل ذلك لا قيمة له ، ثم تسابق في الإكثار من الأموال والأولاد ، والتباهي بذلك أمام الفقراء ، وكل هذا أنسى الناس العمل للآخرة .

حقيقة الدنيا :

حقيقة الدنيا ــ التي من حولنا ــ لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر .. كل هذا سريع الزوال ، وصورتها . مثل المطر الغزير الذي نزل على أرض ، فسقى نبتها ، وأحيا زرعها ، حتى نما وترعرع ، وأعجب الزُّرّاع لخضرته وكثير نضارته ، فتوقعوا منه حصادًا كثيرا ، وثمرا وفيرا ، ثم هاج حتى بلغ غايته ، وجف بعد خضرة ، واصفر بعد نضرة ، وذبل بعد رونق ، وانتهى كل شيء .. حتى صار فتاتا متهشما متكسرا ، تذروه الرياح .

هذه هي حقيقة الدنيا ، فمن غره متاعها ، وانصرف إليها ، ولم يعمل لآخرته فجزاؤه عذاب شديد في دار الجزاء يوم القيامة ، ولأهل الطاعة مغفرة ورضوان من الله تعالى ؛ لأنهم راقبوا الله تعالى ، وعرفوا أن الدنيا إلى زوال ، وما هي إلا متاع خادع ، لمن اغترب بها ، ولم يعمل لآخرته فيها ، أما إذا لم تشغلك الدنيا بلهوها ولعبها بل أعانتك على طلب رضوان الله تعالى فتكون نعم المتاع .

الترغيب في الحصول على مغفرة الله تعالى وجنته :

ثم رغّب الله ــ سبحانه وتعالى ــ في الحصول على نيل رضوانه ، بالمسارعة إلى أسباب المغفرة ، بالعمل الصالح ، والإيمان والطاعة ، لتنالوا مغفرة عظيمة من ربكم ، وتصلوا إلى مكانتكم في جنة واسعة فسيحة ، عرضها فقط كعرض السموات والأرض ، أما طولها فأمر يفوق التصور ، وقد أعدها الله تعالى للذين آمنوا به وبرسوله ، تفضلا من عنده تعالى ، فهو يتفضل على من يشاء من عباده ، لا

مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، بيده الخير كله ، وهو صاحب الفضل العظيم ، وفضله لمن أطاعه واسع وعميم .

كل ما يحدث في الدنيا ثابت في علم الله تعالى وعليهم أن يصبروا أو يشكروا :

ثم بين سبحانه أن ما يصيب العباد في الدنيا ثابت في علمه ، وسبق به قضاؤه وقدره ، فكل ما يصيب الأرض من قلة المطر ، وضعف النبات ، وشدة الزلازل ، ونقص الثمر ، وجفاف الماء ، وقلة الحصاد ، وفراغ المناجم ، وكذلك كل ما يصيب الناس من ضيق المعاش ، وغلاء الأسعار ،وسقم الأمراض ، وفقد الأهل والأولاد ، وضياع الأموال ، وأسباب الأحزان ، ودواعي الأفراح ، والهدي والضلال ، والتوفيق والفشل ، كل هذا ثابت في علم الله تعالى قبل أن يخلقه ويسجله في كتاب يسير على الله تعالى - فهو مقدّر من الأزل ويجب الرضا به ، فلا يشتد حزن الناس على ما فاتهم من الخير ، ولا يشتد فرحهم بما يعطيهم من النعم ، وعليهم أن يصبروا إذا أصابتهم مصيبة ، ويشكروا إذا منحوا نعمة ، ولا مانع من الحزن على أمر يحدث للإنسان في الدنيا بحيث لا يجزع ويضعف إيمانه ، ولا مانع من الفرح بالنعمة بحيث لايطغيه الفرح ، ولايتكبر على الناس ، ولا يختال بما حصل عليه ، والله تعالى لا يحب من اتصف بالكبر والاختيال .

قال عكرمة ــ رضي الله عنه ــ :« ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا »(١) .

---

(١) في ظلال القرآن م ٧ ص ٧٣٨ .

من الصفات المذمومة التي لا يحبها الله تعالى البخل والأمر به :

إن من يشعر شعورا صادقا بأن ما يصيبه من خير أو شر ، هو من عند الله تعالى ، لا يختال ولا يفخر ولا ييئس ، وكذلك لا يبخل ولا يأمر بالبخل ، أما الذي لا يشعر بذلك فإنه يحسب أن ما يصيبه من خير أو شر أو مال أو جاه هو من كسب نفسه ، فيختال ويبخل ، ويأمر غيره بالبخل ، وليعرف هؤلاء الذين يبخلون ولا ينفقون أن الله غني عنهم ، فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه ، والله غني عن إنفاق المنفقين ، حميد يستحق كثرة الحمد على جزيل نعمه ، وإن لم يحمده المعرضون .

* * * *

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا
الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ
وَالْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ
رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن

رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ »

معاني الكلمات والجمل :

بالبينـات : بالمعجزات الواضحة والأدلة الدالة على الحق .

الكتاب : كل كتاب من عند الله تعالى ، جاء به رسول .

الميـزان : الضوابط التي يعرف بها الحق من الباطل ، والحلال من الحرام .

بالقسـط : بالعدل .

وأنزلنا الحديد : أوجدناه من المعادن لينتفع الناس بشدته .

فيه بأس : فيه قوة .

من ينصره : من ينصره الله تعالى .

بالغيـب : يخفي قصده النبيل بلا رياء وسمعة .

ثم قفينا على آثارهم : أتبعناهم بأنبياء آخرين (على سبيل الاستمرار ، نبيًّا إثر نبي) .

رهبانية ابتدعوها : الرهبانية : المبالغة في العبادة ، والانقطاع عن الناس في الأديرة ، والخشونة في العيش ، واعتزال النساء ، ولم يلزمهم الله تعالى بها ، ولكنهم اخترعوها من عند أنفسهم .

إلا ابتغاء رضوان الله : لكنهم قاموا بها طلبا لرضوان الله تعالى .

فما رعوها حق رعايتها : فما حافظوا عليها ، وضيعها من جاء بعدهم .

كفلين : مثنى كفل ، والكفل النصيب ، أي نصيبين .

لئلا يعلم : ليعلم أهل الكتاب .

ألا يقدرون على شيء : ألا يحصلون على شيء .

من فضل الله : من نعم الله تعالى الكثيرة ، وقيل فضل الله تعالى الإسلام ، وقيل الثواب والمغفرة .

بيد الله : بقدرة الله وعطائه .

حكمة الله تعالى في إرسال الرسل وإنزال الكتب :

لقد أرسل الله تعالى رسله ، مؤيدين بالمعجزات الخارقة ، والأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، التي تدل على صدقهم ، وعلى أنهم رسل الله تعالى ، جاءوا لسعادة الناس وخيرهم ، وأنزل معهم الكتب التي تكفل لهم الحياة المنظمة ، وتوضح علاقة الناس بعضهم ببعض على أساس من العدل ، وبيّن ضوابط الحق والباطل ، ومعالم الحلال والحرام ، ومقاييس الحقوق والواجبات ، وقوانين العدالة ؛ ليقوم الناس بذلك ، ويأخذ كل ذي حق حقه ، ويوزن كل شيء بميزان الله تعالى وعدله ، دون هوى شخص ، أو تحكم فرد ، أو تسلط طاغية ، وفي ذلك أمن المجتمع وأمانه ، وسعادته واستقراره ، فلقد أسعده عدل الله من السماء .

خلق الله تعالى الحديد فيه قوة ومنافع للناس :

لكن الناس فيهم الأشرار والأخيار ، وفيهم من ينفذ عدل الله - تعالى - وأوامره ، وفيهم من لا يفعل ذلك ، فلابد من قوة تردع الظالم ، وترد المعتدي ، فأوجد الله تعالى الحديد ، وخلقه من المعادن ، وعلم الناس صنعته ، ليتخذوا منه وسائل قوة ، وأدوات دفاع ، وآلات جهاد ، ووسائل تنفيذ لحدود الله ، وفيه أيضا منافع كثيرة ، فلا يستغني عنه الناس في حضارتهم وتفوقهم وتقدمهم في الصناعات ، ولا يستغني بيت عن الإبرة والفأس وآلات الزراعة ، وأدوات النجارة والعمارة ، وفي الحديد نعمة ما أعظمها من نعمة أنعم الله تعالى بها على خلقه ؟ !

الحديد ينتفع به الناس ، ويدافعون عن دينهم ، ويجاهدون بالأسلحة المصنوعة منه في سبيل الله تعالى جهاداً كتب عليهم ، وينصرون الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ولهم الجزاء من عند ربهم ، وعند ذلك يعلم الله من ينصر دينه ، وينصر رسله ، وهذا لمصلحة العباد ، فإن الله قوي غالب ، لا يحتاج إلى نصير ، وإنما النصر لشرع الله ، ودين الله ، وعدل الله جلت قدرته ، وفي هذا ضمان للاستقرار ، والأمن للناس ، أما الله - سبحانه وتعالى - فلا يحتاج إلى نصير ، لأنه قوي عزيز ، قادر على الانتقام من أعدائه .

أشهر الرسل والأنبياء :

فصّل الله تعالى ما أجمله سابقا من تأكيده لإرسال الرسل بالمعجزات والأدلة ، فذكر أشهر الرسل — عليهم الصلاة

والسلام ـــ فأرسل نوحا إلى قومه ، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم أرسل إبراهيم من بعده ، ومن ذرية إبراهيم (أبو الأنبياء) كان الأنبياء الذين جاءوا بالكتب السماوية الأربعة : الزبور ، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وكان من ذرية نوح وإبراهيم من اهتدى بهذه الكتب وعمل بما جاء فيها ، وكثير منهم خرجوا على تعاليم دينهم ، حتى من بقي على دينه منهم ارتكب الإثم والمعاصي .

عيسى عليه السلام وأتباعه :

وامتدت الرسالات وتتابعت واحدة بعد الأخرى ، حتى جاء عيسى بن مريم ـــ عليه السلام ـــ وآتاه الله الإنجيل ، وهو الكتاب السماوي الذي جاء به لأتباعه ، وفيه البشارة بنبينا محمد ـــ صلى الله عليه وسلم - وأثنى الله تعالى على أتباع عيسى بأنه جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة ، ولقد اكتسبوا ذلك من رقة قلبه وتسامحه ، ولمسنا ذلك ممن اتبع دين عيسى بحق ، ويذكر التاريخ خلق النجاشي ، وكرم ضيافته للمسلمين في الحبشة بعد أن هاجروا إليها ، وكذلك وفد نجران حين قدم على رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ والتاريخ يحفظ من ذلك الكثير .

وهناك ظاهرة أخرى عرف بها أتباع عيسى ، وهي الرهبانية ، مبالغة منهم في العبادة ، وطلبا لمرضاة الله تعالى ، ابتدعها القساوسة والرهبان من عند أنفسهم ، وما ألزمهم الله تعالى بها ، ولكنهم هم الذين ألزموا أنفسهم بالانقطاع في الأديرة عن الناس ، بعد أن اشتد بهم ظلم الملوك والجبابرة ، ولبسوا الخشن من الثياب ، ورضوا بشظف العيش ، والزهد في النساء ، وتعهد الرهبانية وحفظها الأولون

المخلصون من أتباع عيسى ـــ عليه السلام ـــ وجاء من بعدهم من ضيعها ، وشوه حقيقتها ، وتظاهر بها أمام الآخرين ، وأصبحت طقوسا خالية من تعاليم رسالة عيسى ، ووصموها بالتثليث ، وميزوها بالصليب ، وشنوا حروبا باسمه ، وفسق الكثير عن ديانة عيسى عليه السلام ، وكانوا بذلك أبعد عن تعاليم المسيح ، لكن الله تعالى آتى الأجر اللائق لمن آمن إيمانا صحيحا من أسلافهم ، وحافظ بإخلاصه على ما ألزم به نفسه .

ولقد نهى الإسلام عن الرهبانية والانقطاع عن العمل للعبادة ، وحث على المشاركة والإسهام في بناء الحياة ، فتلك بدعة في دين الله مضادة لسنن الله في خلقه وفطرته ، التي فطر الناس عليها ، وقد كانت حياة رسولنا محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وحياة المسلمين معه المثل الذي يجب أن نقتدي به ونحتذيه في حياتنا ؛ لنحصل على خيري الدنيا والآخرة .

نداء من الله تعالى لمن آمن بالرسل السابقين :

أمر الله تعالى المؤمنين بالرسل المتقدمين ؛ بالتقوى والإيمان بمحمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقال : يا من اتصفتم بالإيمان ، اتقوا الله فيما نهاكم عنه ، واثبتوا على الإيمان برسوله محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـ يؤتكم الله نصيبين من الأجر من فيض رحمته ، نصيبا لأنكم آمنتم بالرسل السابقين ، ونصيبا لأنكم آمنتم بمحمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـ ويجعل لكم نورا تمشون به على الصراط بسبب أعمالكم الصالحة ، ويغفر لكم ما تقدم من خطاياكم وذنوبكم ، فهو سبحانه واسع المغفرة ، كثير الرحمة .

وخطاب من الله تعالى لأهل الكتاب :

قال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، إن الأنبياء فينا ، والوحي نزل فينا ، والشرع لنا ، والله تعالى خصّنا - دون جميع العالمين - بهذه الفضيلة العظيمة ، فرد الله تعالى عليهم بالآية الكريمة التي تناديهم . .

يا أتباع موسى وعيسى ، يا أهل الكتاب ، ليعلم منكم من لم يؤمن بمحمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أنهم لا يقدرون أن يحصلوا على شيء من الثواب والمغفرة والرضوان ، إلا بالإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأن إيمانهم السابق بموسى وعيسى لا ينفعهم إلا مع الإيمان برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا يعود عليهم بشيء من الفضل ، لأن الفضل والثواب والمغفرة والرضوان بيد الله وقدرته ، وغير مقصور على قوم ، ولا محدود على فئة ، وإنما فضل الله عظيم يؤتيه لمن يشاء من الناس .

وكان بعض أهل الكتاب يقولون : نحن شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه « وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ »[1] ، « وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ »[2] ، فكان رد الله عليهم واضحا بأن النبوة والهداية والإيمان بيد الله تعالى ، غير محجوز لطائفة من البشر ، والله تعالى يعطيه لمن يشاء من خلقه ، وهو واسع الفضل ، كثير الإحسان .

---

(١) البقرة آية ١٣٥ .

(٢) البقرة آية ١١١ .

تـم بحمـد اللـه

أودع بمركز المعلومات التربوية تحت رقم ٧٧٤ بتاريخ ١٩٨٦/٥/٢١ م

مطابع المجموعة الدولية
International Group Press co.